لـويزيتـو

رواية

سوزانا تامارو

ترجمة: أماني فوزي حبشي

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

لويزيتو

قصة حب

تأليف: سوزانا تامارو

ترجمة: أماني فوزي حبشي

مقدمة المؤلفة

لويزيتو كان ابنًا غير متوقع على الإطلاق، خطر على ذهني في صباح أحد الأيام الصيفية بينما أنا على وشك الذهاب في إجازة مع حفيداتي. تلك هي النعم العظيمة للإبداع.

إنها قصة تدور حول مفاجآت الحياة وحول القوة المنقِذة لعلاقات الصداقة. منذ سنوات سابقة كنت قد قرأت مقالًا صدمني كثيرًا. صودر ببغاء من زوجين مُسِنَّين، كان يعيش معهما منذ أكثر من ثلاثين عامًا. في الحقبة التي كانا قد تلقياه فيها هديةً، في الواقع، لم تكُن هناك قوانين تتطلب وجود ما يثبت مصدره من خلال شهادات معينة، ومِن ثَمَّ كانت النتيجة أن وجوده أصبح مخالفًا للقوانين. في فترة وجيزة، فقد الببغاء المسكين كل ريشه، نظرًا إلى فصله بعد أعوام طويلة عن رفيقيه المحبوبين، وحبسه في محمية طبيعية، ثم تُرك ليموت كمدًا. بعد ذلك ببضعة أشهر، وبسبب الحزن نفسه، مات أيضًا صاحباه. حقيقي أن علينا احترام كل القوانين، ولكن لا بد أن يكون هناك بعض من التمييز في تطبيقها. كان يمكن أن يطلبوا منهما دفع الغرامة، وأن يسمحوا لهما بأن يسويا وضعهما القانوني. ولكن ما حدث هو العكس. طُبِّقت الأوامر بلا رؤية، وبعنف، ولم يهتم أحد بأن تنفيذ هذا الحكم سيؤدي إلى حالة من اليأس الأكيد. في روايتي القصيرة -لحسن الحظ- ستنتهي قصتي نهاية سعيدة، وسيتخطى الحب بين أنسيلما، المعلمة العجوز المُحالة إلى المعاش، وببغائها لويزيتو كل الصعاب، وسينتصر على كل جفاء قانوني.

إنها قصة أحبها كثيرًا، وتُشعرني دائمًا بالراحة لأنها مليئة بالحنان والسخرية. سنضحك ونتأثر وسيلمسنا السلوك الفوضوي غير المتوقع للببغاء الذي سينقذ المعلمة العجوز من شيخوخة قاسية ووحيدة.

سوزانا تامارو، نوفمبر 2012

إلى المعلمات اللاتي علَّمن إيطاليا

وإلى كل مَن، على الرغم من كل الصعوبات، ما زلن يفعلن هذا.

.1

في البداية قفزت. ماذا يمكن أن يكون هناك في أسفل سوى فأر ضخم؟ كان الضوء ضعيفًا، ولم تكُن تتراءى سوى أكياس من البلاستيك، زجاج، عبوات لبن، وبواقي طعام في مرحلة التحلل.

في إحدى المرات، في التليفزيون، كانت قد شاهدت فيلمًا تسجيليًا يُصور في كندا. هناك، كانت دلاء القمامة قد أصبحت أماكن تنزه محببة لحيوانات الراكون، ففي الظلام كانت تترك الغابات الصنوبرية، وطوال الليل تفتش فيها بالداخل، بيدها الصغيرة السوداء. مقابلة راكون ستكون مختلفة تمام الاختلاف عن مقابلة جرذ.

ولكن لدينا الأمر مختلف، فصناديق القمامة تجذب فقط القطط والكلاب الضالة، وجرذان الصرف الصحي الضخمة والمبقعة، في الأعوام الأخيرة أصبح من الممكن أن يتعثر المرء في أحد المواليد الحديثة الذي يعبر مباشرةً من دفء الرحم إلى برد حقائب السوبر ماركت.

نظرًا إلى أنها لم تكُن تعرف ما يجب عمله، مكثت أنسيلما بلا حراك تراقب النقطة التي منها ارتفعت تلك الضوضاء غير المعتادة، وكان مقبض الحقيبة البلاستيكية قد بدأ يؤلم أصابعها.

مرت حافلة، مضيئة وفارغة. كان يبدو على السائق التعب ويُغرق العرق قميصه. حتى وإن كان الوقت ليلًا بالفعل، فإنه لم تكُن هناك ولا نسمة هواء، وكان كل شيء يبدو هادئًا.

قالت لنفسها: "ربما هذا بتأثير الحر"، ورفعت الغطاء الغامق، لتدفع بقمامتها في ذلك الظلام ذي الرائحة الكريهة.

وكانت على وشك أن تعبر الطريق عندما ارتفع خلف كتفيها صوت غريب، لم يكُن صرير القوارض ولا حتى أنين مولود حديث الولادة، ولا جروًا لم يأكل منذ فترة طويلة.

ولكنه كان يبدو بالأحرى صوت ضفدعة، أو ضفدع، ولكن هل يمكن أن يختار ضفدع برمائي بعض الأمتار من الأسفلت المبتل مسكنًا له، بدلًا من مستنقع؟ فيما عدا الفضلات المتلاصقة للمواد المتحللة، لم تكُن هناك أي سوائل أخرى. كانت قد سمعت في برنامج وثائقي أن الحيوانات تُعدِّل من عاداتها للتكيف مع الفرص الجديدة الممنوحة لها من المجتمع. يمكن للضفادع إذن أن تتخذ الطريق نفسه الذي اتخذته حيوانات الراكون، نظرًا إلى أنه حول "المنصة البيئية" كانت تتطاير دائمًا كمية كبيرة من الحشرات.

- *كراك*!

كانت بالفعل على الجانب الآخر من الطريق، ثم تكرر الصوت بشكل أوضح: *كراك*!

هذه المرة لم تساور أنسيلما أية شكوك أخرى، شيء حي وغريب بدأ يظهر هناك في أسفل. تغلَّب عندئذٍ فضولها على خوفها، وأخذت يد مكنسة قديمة متروكة، وعادت إلى الوراء، وبحرص أخذت تفتش بين النفايات الورقية.

- *كراك*!

أبعدت علبة اللبن الكرتون الفارغة، وقفزت من الدهشة. وكأن جزءًا من قوس قزح تنازل واستراح على الأرض، وبين اللون الأخضر والأصفر والأزرق والأحمر والسماوي برز الأسود اللامع للعينين. كان جفناه ساقطين بعض الشيء ورأسه مائلًا قليلًا على كتفيه، إذا كان يمكن إطلاق كلمة "كتفين" على ما للببغاء.

هل كان ينظر إليها؟

كان هذا هو انطباع أنسيلما.

- *كراك*!

- *كراك*. رددت أنسيلما بطريقة آلية.

- *كراك*! *كراك*!

ماذا كان إذن ذلك الصوت، إذا لم يكُن طلبًا للمساعدة؟ لا بد أن الطائر المسكين متألم، ربما كان هناك منذ أيام، ولم يأكل ولم يشرب، ربما كان أحد جناحيه مكسورًا، أو أسوأ من ذلك، ربما يكون قد تعرض لعقر مقزز من الجرذان.

ببطء، فكت أنسيلما عقدة المريلة التي كانت ترتديها، خلعتها، وبخفة لم تكُن تتخيل أنها تتمتع بها، وضعتها فوقه. ومن أسفل القماش المزين بالورود خرج صوت "*كراك*، *كراك*" ضعيف.

- *كراك*! أجابت هي، وهي تمسك بالحزمة، بحزم لم يكُن يسمح بأي رد.

كان أخف من المتوقع وباردًا. كان يحرك منقاره بوهن، كأنه يرغب في أن يتحرر من ذلك السجن المفاجئ.

أخذت أنسيلما تقطع بخطوة سريعة المسافة القليلة المؤدية إلى المنزل. أسفل إضاءة مصباح نيون ينير الطريق، كان كل شيء يبدو مسطحًا. كانت تسير وتسمع دقات قلبين، قلبها وقلب ذلك الشيء الصغير الذي تمسك به في يدها.

بمجرد أن دخلت إلى شقتها، بحثت عن مكان لتضعه فيه. تذكرت أنه يوجد قفص قديم لعصافير الكناريا في المخزن، ولكنها استبعدته على الفور؛ فقد كان صغيرًا جدًّا. كان لا بد أن تربطه من إحدى قدميه، ولكن، لم تكُن تمتلك أي سلاسل، بخلاف تلك المعلق فيها غطاء حوض الاستحمام. ثم لم تدرِ ماذا تفعل.

لم يتبقَ لها سوى النظام الكلاسيكي، صُنع فتحة في صندوق أحذية، ولكن لا بد أن يكون حجمه كبيرًا. تذكرت ذلك الصندوق الكبير الذي سبق واحتفظت به، واتجهت نحو خزانة الأدوات المنزلية.

في تلك اللحظة دق جرس الهاتف. عندئذٍ فقط أدركت أن الساعة العاشرة بالفعل، فإن ولديها جوليا وماسيميليانو منذ أعوام يتصلان بها في تلك الساعة (الساعة التي تنخفض فيها أسعار المكالمات جدًّا)، وكانا يفعلان ذلك بالتبادل أسبوعيًّا، دون أن يخطئ أحدهما قط في دوره.

- "ماما، هذا أنا". قال الصوت الحاد للابنة، وأخذت على الفور تحكي لها عن رحلتهم إلى شاطئ البحر، والدرجات الدراسية الكارثية لحفيدتها المراهقة، وقناديل البحر التي -كما يحدث في أفلام الرعب- حاصرت بمجساتها البنفسجية كل جانب من جوانب الشاطئ.

بدأ البغاء في التلوي بقوة أكثر من بين أصابعها، وأنهت أنسيلما المكالمة.

- اعذريني، أنا ذاهبة لأنام.

- من الآن؟ هل أنتِ بخير؟

- أنا في أحسن حال.

- *كراك*!

- ماما. هل هناك أحد معكِ؟

- من سيكون معي؟

- ماما لا تدفعينا للقل...

- تصبحين على خير!

قالت هذا وقطعت الخط.

كان الببغاء قد نجح في أن يمسك بجزء من طرف أصابعها بمنقاره.

عندما عثرت على الصندوق الكبير في النهاية، قطعت فتحة لرأس الببغاء وأدخلته فيه. بعد عدة خبطات بأظافره على الكرتون، وبعد بضعة محاولات واهنة للتمرد، خرج الرأس الملون من الفتحة.

- *كراك، كراك*.

ماذا تأكل الببغاوات؟ لم تكُن أنسيلما تعرف؛ فهي لم تعرف سوى تلك التي تقف على أكتاف القراصنة في الأفلام، ولم تكُن قد رأت أي أنواع أخرى منها طوال حياتها. كانت تتذكر عنها أنها تعيش طويلًا، وحسب أحد البرامج الوثائقية حول مخ الحيوانات رأته منذ فترة وجيزة، كانت تبدو أكثر ذكاءً من كلاب كثيرة.

- *كراك*.

أول شيء فعلته وضعت له صحن ماء. لم ترَ قط لسانًا بهذا الطول والقوة، بدا كأنه أصبع. شرب الببغاء طويلًا، في رشفات صغيرة، وهو يغلق عينيه مستمتعًا.

بعد المياه، حاولت أنسيلما شريحة من التفاح، وفي بضع ثوانٍ اختفت في منقاره. نجاح حقيقي، وبدلًا من "*كراك*" المعتادة علَّق بـ"*كراك، كراك، كراك*" صغيرة.

هل كانت طريقة ليشكرها؟ فجأة شعرت بأنها متعبة بالفعل، وأخذت الصندوق وذهبت إلى غرفتها.

سببت لها أحداث ذلك المساء بعض الاضطراب، وكان نومها خفيفًا وقلقًا، وكانت المروحة المعلقة تردد لها في كل دورة: *لماذا أخذتِه؟ كنتِ بخير بمفردك، لن يكون ذلك سوى مصدر للإزعاج. لماذا أخذتِه؟ كان يمكنكِ تركه هناك لقدره*. وفي ذلك النوم المتقطع، المُجزأ، أخذت وجوه ومواقف من الماضي تتدافع في ذاكرتها. *ما معنى كل شيء؟ ما معنى كل شيء؟* وكانت ريشات المروحة تسألها في أثناء دورانها في الهواء.

قرب الفجر، مرت سيارة إسعاف أسفل النوافذ. في السابعة، وفي الغرفة شبه المظلمة، ارتفع صدى "*كراك؟*"، تبعته "*كراك!*" حاسمة.

أجابت أنسيلما: هأنذا! ودون أن تفكر أضافت: يا لويزيتو!

في تلك الليلة، وبين الخيالات المضطربة التي ظهرت لها من الماضي، كانت توجد هي أيضًا، لويزيتو، رفيقة الدراسة في معهد إعداد المعلمين. رأتها في يوم عاصف، شعرها مبعثرًا، وعيناها مغمضتين في الهواء الذهبي للغروب.

إن الذاكرة شيء عجيب بالفعل، أحيانًا تبدو كأنها تتصرف كحاوٍ، تهز الأسطوانة لتخرج منها لحظات اعتقدنا أننا نسيناها إلى الأبد.

على سبيل المثال، كانت تلك اللحظة تعود إلى رحلة قامت بها مع الصف المدرسي، إلى فينسيا، في العام الدراسي الأخير. وكانت لويزيتو تبتسم وهي تقف مستندة إلى حاجز المركب النهري. ساهمت النهاية الوشيكة للدراسة، والانفتاح على كل احتمالات الحياة، واليوم المضيء للربيع، جميعها متحدة مع جمال مناطق الزيارة، في أن تجعل تلك اللحظات متميزة بالفعل.

في الظهيرة كانتا قد ذهبتا إلى مورانو، وهناك زارتا مصنع صناعة الزجاج. وأمام عيونهما، صنع رجل قمحي اللون، يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا أزرق، من خلال النفخ في قصبة طويلة، أشياءَ رائعة الجمال، بلا أي تعب ظاهر. قبل أن تخرجا، ابتاعتا عائلتين من الحيوانات الملتصقة على مرايا: اختارت لويزيتو البجع، بينما هي، وبعد تردد طويل، اختارت القطط الصغيرة.

وفي أثناء انتظارهما للمركب الذي كان سيأخذهما إلى فينسيا، ممسكتين بتلك اللفة الصغيرة، كل منهما بين يديها، أخذتا تتناقشان حول ما الشعر؟

- ما العلاقة بين حياتنا والقصائد الشعرية التي حفظناها في المدرسة؟ إن حفظ قصيدة شعر ما مثل معرفة نظرية ما، أو هل هو شيء مختلف؟

كان دائمًا حماس وفضول لويزيتو هما ما يجذباها نحو تلك المناقشات التي لم تكُن لتخطر لها قط على بال.

- ما الفارق إذن بين: "المربع مبني على زوايا قائمة[1]" و"ولطالما كان هذا التل المنعزل عزيزًا عليَّ[2]"؟

- وما الجانب العملي للشعر؟ لا يوجد. إن الشعر لا يفيد في شيء، لا يعطينا لنأكل ولا يسمح لنا بأن نبني المنازل، مثلما تفعل الهندسة، ولا يشفي أيضًا أي مرض.

وتجرأت أنسيلما: هل تقصدين بهذا القول أننا يمكننا أن نعيش من دون شعر؟

في ذلك الوقت كان المركب النهري قد وصل، وكان الناس يندفعون ليصعدوا فوقه.

- بالتأكيد يمكن هذا! وربما سيشعر الناس بأنهم أفضل حالًا أيضًا. انظري حولكِ، انظري إلى بيكالوسي وإلى سالتيمبالو (كانتا المكروهتين جدًّا بين رفيقاتهن)، هل تظنين أنهما في حاجة إلى الشعر ليعيشا؟ ألا يحتاجان بالحري إلى زوج أحمق وغني لينتفا ريشه مثل الدجاج؟ فهما لن تسألا مطلقًا ما الشعر، ولا حتى ما الموت. لن تكون لديهما أبدًا لحظات اضطراب أو خوف أو شك، فحياتهما ستكون مثل تلك التي للبطة البلاستيكية التي تطوف في حوض الحمام، هادئة، محمية وبلا أي أفق. ستعيشان بالتأكيد أفضل مني، وأفضل منكِ، ولكن هل تلك بالفعل حياة؟ هل هي الحياة التي يتمناها المرء؟ هل هي حياة تجعلكِ تقولين على فراش الموت: كانت على كل حال مغامرة رائعة؟ أو ليست تلك شبه حياة؟ ما الحياة إذن بلا غموض، وبلا تلك الرغبة في فك طلاسمه، سوى تيه لا ينقطع من التثاؤب؟

في تلك اللحظة نفسها، بالمصادفة، تثاءبت بيكالوسي، وانفجرتا في الضحك وغطت كل منهما فمها بيديها. كانت الشمس على وشك المغيب، وبدا كأن بحيرة كيوجا ترغب في ابتلاعها، وبدأت أشعتها تضيء الحزم الزيتية والمضيئة للوقود الذي تركته المراكب في أثناء حركتها.

واستمرت المناقشة أيضًا في القطار.

ثم أبدت أنسيلما ملاحظة: وإذا لم يكُن يفيد في شيء، لماذا يوجد؟

- ربما ليذكِّرنا بأن ذلك الذي لا يفيد يجعلنا نتميز عن القردة. فيمَ يفيد الجمال؟ وفيمَ تفيد الرحمة؟ وفيمَ يفيد اللحن؟ إن الأشياء المهمة لا تفيد أبدًا في شيء.

وقبل أن تناما منهكتين، الواحدة فوق كتف الأخرى، كانت أنسيلما قد همست: ألم يكُن شيئًا رائعًا أن نرى كيف جاءت الأشكال الرائعة الزجاجية من تلك الكتلة السوداء؟

ثم استيقظتا قبل الوصول إلى المحطة بقليل. وعلى الرصيف، وبينما تصافح الصديقتان إحداهما الأخرى، اقتربت لويزا: أريد أن تكون حياتي مرنة ومضيئة مثل تلك التي للزجاج قبل أن يتشكل!

وكان ضوء المصباح النيون يلقي بظلال شاحبة على وجهها.

- هل هذا طلب أم وعد؟

انفجرت لويزيتو في الضحك وهي تهز شعرها الطويل المضفر.

- إنه يقين.

- وأنا أيضًا أتمنى ألا يغادر الشعر حياتي أبدًا.

أعلنت أنسيلما، ولكن ابتلع صوت قطار يمر الصوت الضعيف لكلماتها.

طوال سنوات الدراسة كانت أنسيلما تحسد دائمًا حيوية لويزيتو. كانت مقتنعة بأن صديقتها، لما لها من كاريزما يعترف بها الجميع، ستنجز أشياء عظيمة في حياتها.

وهذا ما حدث بالفعل في البداية.

بعد حصولها على الدبلومة على الفور، فازت في مسابقة التدريس، وعلى الرغم من أن تكليفها جاء في قرية جبلية نائية، فإنها نجحت في أن تتخرج في علم النفس، ونشرت كتابًا عن معنى الألوان في رسوم الأطفال.

لم تتزوج، ولكن ربما لم تكُن هناك مساحة لزوج في حياتها. كان البعض يسخر بالفعل في أثناء فترة الدراسة بسبب عدم اهتمامها بالرجال. وتذمرت أنسيلما بخجل عندما سخرت منهما الزميلات، لأن لويزيتو، في أثناء تلك الرحلة، أمسكت بيدها فجأة بين يديها.

ولكن في نهاية الأمر، فارق الحظ حياتها، وقبل أن تصل لأعوامها الأربعين بقليل مرضت بسرطان الدم، وماتت بعد أن صارعت المرض بضراوة.

عرفت ذلك في ظهيرة أحد أيام نهاية شهر أغسطس، عند عودتها من البحر مع زوجها وأبنائها. كانتا قد فقدتا الاتصال منذ أعوام. وفي صندوق البريد عثرت على خطاب تحكي لها فيه عن مرضها، وطلبت منها أن يلتقيا للمرة الأخيرة، ولكن وصلت الرسالة متأخرة جدًّا، عندما دقت الرقم المكتوب على المظروف، كانت لويزيتو قد رحلت بالفعل.

خلال كل تلك الأعوام كانت قد وعدت نفسها بأن تذهب إلى قبرها لتضع لها زهورًا، ولكن لم تستطع قط أن تفعل ذلك.

هل شعورها بالذنب هو ما جعلها تخطر على بالها في تلك الليلة؟ أو أنها كانت ألوان الببغاء، التي ذكَّرتها بذلك الزجاج الهش في مورانو؟

2.

في الصباح، بدا كأن لويزيتو قد استعاد عافيته، بدا أن عينيه قد استعادتا لمعانهما، وكان ينظر حوله في فضول.

أخذته أنسيلما معها إلى المطبخ. وبينما هي في انتظار القهوة، وضعت له من جديد شريحة من التفاح التهمها باستمتاع أكثر من ذلك الذي لليلة السابقة.

بعد الانتهاء من الإفطار، قررت أن تذهب للتسوق. ارتدت ملابسها، وتأكدت من قوة البلاستيك الذي يسد الصندوق، وأمسكت بحقيبتها في يدها وفي اليد الأخرى حقيبة التسوق ذات العجلات، وفتحت الباب.

كانت نهاية شهر يوليو، وكان القار متلاصقًا بالفعل أسفل نعليها كأنه لاصق يغلي. وفي القمع الرفيع للظل في الحديقة العامة، كان هناك أربعة أو خمسة من المُحالين على المعاش يقرؤون الصحيفة، وكانت أحواض الزهور متربة تناثرت فيها فضلات الكلاب.

من بعيد، رأت إحدى معارفها الثرثارات تسقي كلبها الصغير في نافورة الزاوية، ولم تكُن لديها الرغبة في تضييع الوقت، وهكذا انسحبت مباشرةً، متظاهرةً بأنها تحدق باهتمام في نافذة محل الأدوات الكهربائية، على الرغم من أنه كان ما زال مغلقًا.

كان السوق التجاري يوجد على بُعد بضع بنايات، ولكن في ذلك الصباح لم يكُن المشي يتعبها كثيرًا، نظرًا إلى أنها كانت غارقة في أفكارها. كانت متأكدة تقريبًا أن الببغاوات لا تأكل اللحم الطازج، وكانت تتمنى أن يكون هذا حقيقيًّا، لأنها لم تكُن تتخيل على الإطلاق أن تجد نفسها تلقي برقاب ديوك في الهواء في منتصف الصالون ليلتقطها في أثناء طيرانه، أو الأسوأ من ذلك، كما حدث لإحدى صديقاتها التي كانت ترعى أفعى أناكوندا لحفيدها، أن تترك بعض الفئران البيضاء حرة فوق وسادات الصالون. في الحقيقة، عندما أعادت التفكير في ذلك الفك، المعقوف بوحشية، بقي لديها بعض الشك، ولكن لم يكُن سوى ظل منه. بمجرد أن تدخل إلى السوبر ماركت ستترك نفسها للرسوم التوضيحية على العبوات الموضوعة فوق الأرفف المخصصة لأكل الحيوانات.

انفتحت الأبواب الكبيرة الزجاجية كأنها كانت في انتظارها.

وبينما تدفع عربة التسوق الضخمة، لاحظت أنسيلما كيف كانت لا تتناسب في حجمها مع احتياجاتها القليلة. وفي الممرات الطويلة، قابلت موظفين آخرين على المعاش مثلها، متشبثين مثل الغرقى بتلك الهياكل الحديدية. كان الهواء منعشًا، تقريبًا باردًا، وكانت مكبرات الصوت تدفع بموسيقى تصم الآذان.

كالعادة، ابتاعت أنسيلما لنفسها عبوة من جبن "ستراكينو"، وكيس جزر، وآخر للتفاح، وعبوة أرز حبته صغيرة. ولم تسمح القرحة التي تعذبها منذ فترة بأكثر من ذلك.

وعندما وصلت في النهاية إلى قسم الحيوانات، أخرجت نظاراتها من الحقيبة وبدأت في الدراسة. كان يوجد كل أنواع المأكولات الشهية للكلاب وللقطط: باتيه، مقرمشات، حلوى سوفليه، سجق، نوع من الحلوى بطعم الكرشة، حتى فرش الأسنان والمعجون بطعم الكبد، بينما الرف المخصص للطيور مزود بأشياء أقل: أكياس رمال وعظام حبار، طعام لطيور الكناري، وللطيور الاستوائية وطيور الدرة، والبسكويت بالبيض، وفي ركن كان يوجد بعض المستلزمات للأقفاص، مثل المسقاة والمرايا، والأراجيح والسلالم الصغيرة. ولكن لم يكُن لأطعمة الببغاوات أي أثر.

ولم يتبقَ لها سوى الذهاب إلى الخزينة. وأمامها كان يوجد ثلاثة أرامل، تعرّفت عليهم بسبب التكرار في مشترياتهم: فول، وكرشة، وتونة، ولحوم معلبات، وبعض عبوات نبيذ رخيص الثمن.

وعندما وصلت لدورها، سألت الفتاة الجالسة أمام الخزانة أين يمكنها العثور على متجر للحيوانات. أشارت لها الفتاة -التي كانت مهذبة بشكل غريب- إلى اسم متجر بعيد بعض الشيء، ولتوضح لها أكثر، رسمت لها الطريق على ورقة وصل قديم.

- أشكرك! أتمنى ألا يكون مغلقًا!

أجابتها فتاة الخزانة، بابتسامة مشجعة: أتمنى ذلك!

استغرق الأمر عشرين دقيقة لتعثر على المتجر. وعندما دخلت، كانت العميل الوحيد. تجاوزت جدرانًا من أحواض السمك المملوءة بالأسماك الملونة، وتوقفت أمام جدار من أقفاص الطيور بكل الأحجام. كان يوجد أيضًا سنجابان مخططا الظهر، يجريان بلا توقف داخل عجلة.

أقبل لمقابلتها شاب بترحاب شديد.

- تحت أمرك؟

- أرغب في طعام ببغاوات.

- أي نوع من الببغاوات؟

حتى لا تثير شكوكه قالت أنسيلما: إنه لحفيدي، وتركه لي في فترة العطلة، ونسيت النوع.

أخذها الموظف أمام رف مليء بالمعلبات من كل نوع وحجم. تعرفت عليه آنسيلما على الفور من الصورة: ها هو، ذلك النوع.

قال الشاب، وهو يشد الطعام إلى أسفل بذراع طويلة من المعدن: إذن فهو ببغاء أمازوني. وبالإضافة إلى طعام الطيور، ابتاعت أيضًا بعض الرمال، والبسكويت، وعظمتَي حبار ومجثمًا من الخشب والحديد معلقة به سلسلة طويلة.

وسارت بعجلة وهي تقترب من الخزانة. كانت تشعر بالقلق الآن، نظرًا إلى أن هناك من ينتظرها، القلق نفسه الذي طالما استحوذ عليها في حياتها الطويلة كزوجة وكأم، وطالما قال ابنها وابنتها لها: كم أنتِ مملة يا أمي! ماذا يمكن أن يحدث؟ في واقع الأمر لم يكُن شيء يحدث قط.

ولكن في ذلك اليوم، عندما فتحت الباب، أدركت برعب أن شيئًا ما قد حدث بالفعل. كانت العلبة البيضاء للحذاء ذي الرقبة تقبع مقلوبة وسط مائدة المطبخ، وكانت الخيوط البلاستيكية ما زالت في مكانها، ولكن كانت هناك دوامة في المنتصف. لا بد أن لويزيتو قد عمل بالصبر الدؤوب للمساجين لينجح في الهروب.

لحسن الحظ، كانت حريصة على ألا تترك أي نافذة مفتوحة.

- لويزيتو! نادت بصوت مرتعش، لويزيتو!

لا شيء.

كانت تُسمَع فقط أصوات التليفزيون المرتفعة جدًّا القادمة من بيت الجار، ضابط متقاعد مشاكس.

عندئذٍ صرخت: لويزيتو! بنبرة سلطوية كانت تستخدمها أيام المدرسة.

ومن الردهة وصل إليها صوت رفرفة جناحين سريعة، وحط الببغاء على إحدى أذرع مصباح زجاجي من مورانو.

- *كراك، كراك*!

تنفست أنسيلما بارتياح.

- آه، لحسن الحظ أنك مطيع. إليك، انظر كم الأشياء الجميلة التي أحضرتها لك.

قالت، وبدأت تعد المائدة بصحن مياه وطعام الطيور، وتضع المجثم بجوار النافذة.

وبعد دورتين من التحليق الدائري، حط لويزيتو على المائدة وبدأ يأكل على الفور بنهم.

أعدت أنسيلما لنفسها بعض الأرز بالزيت وجزرة مبشورة، وجلست أمام المائدة وهي تحدق في صديقها الجديد. وبينما هي تفكر في أفضل طريقة للإمساك به، وصل الببغاء إلى المجثم الخشبي، وبعد أن تمطى، رفع إحدى قدميه وأخفى رأسه أسفل جناحه، ليغفو.

بعد أن غسلت الصحون، فعلت أنسيلما مثله، واستلقت على الأريكة، وأراحت قدميها على البوف، وأدارت التليفزيون. وكما يحدث دائمًا في العالم، كان الناس يتقاتلون تقريبًا في كل مكان، وكالمعتاد، في أثناء فصل الصيف، توضع لافتات على الطرق السريعة، ويُحَذَّر من احتمال سقوط كثير من المسنين قتلى بسبب الحر.

من يدري لماذا، كل صيف، تساءلت أنسيلما، تتحول الأشياء اليومية المعتادة إلى حالة طوارئ. تتفجر، بتحذيرات كبيرة، طوارئ الحر الشديد، والمواصلات، وطوارئ المسنين، وطوارئ قنديل البحر، وطوارئ الطحالب البحرية. وذلك كي لا يتحدثوا عن حالات الطوارئ للكلاب التي تُترك في الطرق العادية والطرق السريعة، لتسمح لأصحابها المدهونين بالزيت كالسردين بأن يرقصوا على الشواطئ على إيقاع بعض الموسيقى القبلية. في كل مرة، قبل نطق كلمة: طوارئ، كان المذيع يقترب من شاشة التليفزيون، ويوسع حدقتيه. وكان لا بد لهم أيضًا التحدث عن طوارئ الببغاوات، فكرت أنسيلما، وهي تغلق جفنيها.

وفي أثناء فترة النوم القصيرة التي تبعت ذلك، حلمت بعشرات من الببغاوات وعصافير الكناريا التي كانت تضرب بيأس مناقيرها في زجاج نافذة المطبخ، ثم جاء دور أسماك غريبة طرية، مثل المطاط، وسلاحف بحرية تخرج من صنابير المنزل.

في الظهيرة، زاد ثقل الحرارة. أخفضت أنسيلما المصاريع وجلست على المائدة وحاولت أن تنهي مسابقة كلمات متقاطعة كانت قد تركتها في منتصفها.

وعلى المجثم كان لويزيتو يراقب باهتمام تحركاتها. عندما قامت أنسيلما بحركة مفاجئة لتبعد ناموسة وسقط القلم منها على الأرض، طار الببغاء فوقه وأمسكه بمخالبه، وطار فوق المائدة، ووضعه لأنسيلما.

قالت بدهشة: أوه، شكرًا.

نعق لويزيتو: شكرًا لكِ.

في ذلك المساء، في العاشرة ودقيقة، دق الهاتف، وتركته أنسيلما، التي كانت تضع للويزيتو قطعة موز، ليدق أكثر من المعتاد. وعندما رفعت أخيرًا السماعة، كان الصوت الأخنف، نوعًا

ما، لابنها ماسيميليانو به نبرة فزع.

- ماما، أين كنتِ؟ كنت قد بدأت أشعر بالقلق.

- ولماذا هذا؟

- في العادة تجيبين بعد الرنة الثالثة أو الرابعة.

- في العادة.

- هل أنتِ بخير؟

- في أحسن حال.

- أليس الجو شديد الحرارة؟

- أغلق المصاريع.

- كنت سأخبركِ أيضًا أن تأتي للجبل لدينا، ولكن، كما تعرفين، العدد كامل الآن. ولكن يمكنني أن أعثر لكِ على حجرة في بنسيون، إذا أردتِ.

- لا تهتم، فأنا في أحسن حال في المدينة.

- سيتحدث معكِ الأولاد!

صوتان رفيعان ومتعجلان، صرخا: "أهلًا يا جدة"، في سماعة الهاتف قبل أن تبتلعهما الضوضاء الخلفية للتليفزيون وألعاب الفيديو.

- هل فكرتِ في الاقتراح الذي عرضناه عليكِ؟

لم تختلف نبرة ماسيميليانو كثيرًا عن نبرة المذيعين عندما يعلنون عن حالة طوارئ جديدة.

- لن أفكر فيه حتى.

- في المرة السابقة أبديتِ بعض الاستعداد.

- تتغير الأشياء.

سمعت آنسيلما في الخلفية صوت زوجة ابنها وهي تهمس: هيا! حاول أن تختصر، أنت تعرف أن العجوز عنيدة.

حاول الابن مرة أخرى متظاهرًا بالقلق: أليس لديكِ شيء آخر تقولينه لي؟

- بلى، ليلتك سعيدة!

ثم أغلقت أنسيلما الخط بأن وضعت سماعة الهاتف.

في تلك الليلة، للمرة الأولى، طار لويزيتو فوق كتفها. كانت بالفعل بقميص النوم، وكانت في طريقها لتغسل أسنانها. كانت تخشى من أن تكون مخالبه حادة، إلا أنه وقف برقة شديدة.

وبينما كانا أمام المرآة، لمس بمنقاره حلمة أذنها.

تساءلت أنسيلما، بعد أن احمرت وجنتاها قليلًا: هل هذه قبلة؟

- *كراك*!

أجابها الببغاء محركًا جناحيه وهو ثابت في مكانه.

3.

كان الهواء مشبعًا جدًّا بالرطوبة، إلى حد أن ريشات المروحة لم تكُن في استطاعتها أن تخلق أدنى حد من التهوية. أطفأت المصباح الموضوع فوق الكومودينو وبعد قليل بدأت ناموستان الزن في أذنيها. وعلى الرغم من سرعتها في إشعال الضوء والهجوم عليهما بمجلة الألغاز الأسبوعية، فإن الناموستين نجحتا في الفرار من ضرباتها.

كان لويزيتو ينام فوق المجثم، في المطبخ. كانت ترغب في أن تأخذه معها إلى غرفتها، ولكن فكرة أنه سيحلق فوق فراشها بينما هي مستغرقة في نومها كانت تصيبها بالفزع. لم تكُن قد اعتادت إلى هذا الحد بعد على وجوده.

ومن البار في أسفل كانت تصل إليها ضحكات وأصوات، كان ابتعاد الدراجات الآلية يجرح الهواء بمواسير العادم المفتوحة. منذ أن افتتحوا هذا المحل، تحولت الليالي إلى جهنم. استدعى السكان، أكثر من مرة، الشرطة، ولكن لم يفِد هذا في شيء. كان تصرف الاعتراض الوحيد نتج عن الطابع الغضوب لجارها: في ساعة محددة يفتح النافذة ويلقي إلى أسفل بدلاء من المياه، وهو يصرخ: "يستلزم الأمر حربًا!"

وللانتقام منه، كتب أحدهم: "فاشي ملعون"، بالقرب من بوابة المبنى.

يستلزم الأمر حربًا، أجل، فكرت أنسيلما وهي تستدير في فراشها. يستلزم الأمر حربًا ليتمكن المرء من تمييز الشيء الأساسي من غيره. هناك عديد من الأشياء في العالم، وكل هذه الوفرة لم تتسبب في شيء سوى في زيادة سوء التربية. الآن يرغب الجميع في الحصول على كل شيء. شكرًا، الكلمة الصغيرة السحرية، كما كانت تسميها مع تلاميذها، سحرية لأنها تفتح كل الأبواب وتغلق برقة ذلك الذي لا بد من غلقه، قد اختفت من فوق شفاه العالم المتحضر. وفي مكانها، في أفضل الحالات، يخرج نوع من الأنين. لعدة أعوام، وبنوع من الإصرار العنيد، اقترحت استخدامها، بالإضافة إلى أخيها: "من فضلك" على أحفادها.

- أريد ماء!

- أريد ماء ثم؟

- أريد ماء ثم أريد نوتيللا!

وفي سن ثمانية أعوام انفجر الحفيد الأكبر: كفى يا جدة، كم أنتِ مملة! إنها أشياء قديمة. لم يعد أحد يقولها، وما زال العالم يتقدم إلى الأمام!

في تلك الفترة أدركت بالفعل أنها خسرت المعركة مع سلالتها، فالعالم لم يعد يتقدم إلى الأمام، بل يتقهقر إلى الخلف. كانت ترغب في أن تصرخ، "إلى عصر الهمجية"، ولكنها التزمت الصمت. بالنسبة إليهم كان كل شيء "من حقهم"، والتعبير عن احتياجات متكبرة كان الشعار الوحيد الفعّال لأيامهم. ولكن هل كان بالفعل كل شيء من حقهم؟ وهل يمكن بالفعل أن يعيش المرء حياته دون أن يعبِّر أبدًا عن أي قدر ولو ضئيل من العرفان؟

لتبحث عن شيء منعش بعض الشيء، نظرًا إلى أن جهة الفراش الخاصة بها غرقت من العرق، انتقلت أنسيلما إلى جانب جانكارلو. على الرغم من أنها منذ أعوام سيدة الفراش الوحيدة، فإنها نادرًا ما تفعل ذلك. كانت الملاءة مشدودة وباردة، والسوست لا تصدر صريرًا كثيرًا مثلما يحدث من جهتها.

وفوق كومودينو جانكارلو، كان المنبه هناك، بعد أن توقف على يوم وفاته. كانت أمه قد أهدته إليه، عندما تخرج في المحاسبة، ولمدة ثلاثين عامًا، كل مساء، وقبل أن يطفئ النور، كان يشحنه بالحركة نفسها. ولمدة ثلاثين عامًا، كان صمت لياليهما تتخلله دقاته تلك المزعجة.

طالما رغبت في أن تلقيه بعيدًا، ولكن في حقيقة الأمر، تشعر بمتعة أكثر لرؤيته هكذا، وقد التزم الصمت أخيرًا.

وأيضًا أطقم النوم الخاصة بزوجها، طيلة الأعوام الثلاثين لزواجهما كانت هدية من والدته. في إحدى المرات، في أثناء أحد لقاءاتهم النادرة والمتعجلة في علاقاتهما، فكرت في أن تقول له: لدي الانطباع أننا دائمًا ثلاثة. ولكنها لم تجد الشجاعة الكافية.

إلا أنها أسرت بذلك لإحدى صديقاتها، في تلك الفترة.

- ألم تدركي ذلك سوى الآن؟ أجابتها، ثم أضافت وهي تضحك: ليكونا اثنين فقط في الزواج، لا بد للواحدة أن تتزوج يتيمًا.

4.

كان جانكارلو أكبر منها باثني عشر عامًا، وكانا قد تعرفا في أحد الملاجئ الجبلية. كانت قد ذهبت إلى هناك في رحلة، بمفردها، كان المكان قريبًا بعض الشيء من الوادي الذي تعمل فيه مدرِّسة، بينما أتى هو مع أعضاء النادي الاجتماعي الذي كان عضوًا فيه. ونظرًا إلى أنه كان آخر من وصل من مجموعته، لم يعثر على مكان على الموائد الأخرى، وهكذا سألها إذا كان بإمكانه أن يجلس على المقعد الشاغر بجوارها. أدركت أنسيلما أنه كان يعرج قليلًا، واعترف هو لها على الفور بالسبب: لقد جُرح في الحرب، في أثناء عملية، حسب تعريف رفاق السلاح، تميزت بالجسارة والشجاعة وكانت تستحق المكافأة بميدالية استحقاق. وأضاف أنه محاسب وأنه يعمل كمندوب تجاري، ولكنه يشعر بداخله، منذ الأزل، بالتطلع نحو شيء أكبر.

بعد ذلك مكثا طويلًا في صمت، يتأملان المناظر الجبلية، والسماء الصافية، وطيران أحد الطيور الجارحة الضخمة من بعيد. وتنهد جانكارلو بعمق.

- لا أعرف كيف يمكننا أن نعيش دون أن نتأمل العالم من أعلى. من دون ذلك العلو، لا يمكن أن يكون هناك أي نبل.

لم تفهم أنسيلما جيدًا ماذا يعني، ولكنها، على الرغم من ذلك، تأثرت بنبرته الموحية.

وسألته بخجل: وحضرتك أيضًا تحب الشعر؟

- بالتأكيد، شعر القمم، شعر الغروب على البحر، شعر كل ما يذكِّرنا بالجمال، مثل عينَي صبية.

ودون أن تدرك، احمر وجهها، كأنه يتحدث عنها.

- وهل تنظمه أيضًا؟

سعل جانكارلو سعلة خفيفة.

- بالتأكيد، ولكن ليس كثيرًا، فقط عندما يكون لدي مصدر للوحي. على سبيل المثال، الآن، في لحظة مثل هذه، سأحب أن أسجل ذلك على الورق.

في ذلك المساء، أمام مرآة الحمام، أدركت أنسيلما أن وجهها كسته الحمرة من الشمس، بل، كأن الشمس تغلغلت بداخله وحوَّلت عينيها إلى نجمتين صغيرتين.

كان لويزيتو هو من أيقظها من ذلك النوم المزدحم والمرتبك، بعد الفجر بفترة، وهو يردد بفرح: *كراك، كراك، كراك*.

وبدا لأنسيلما كأنه يلومها، كأنه يرغب في أن يقول لها: يجلب الصباح الذهب في فمه، وكانت تلك هي العبارة التي تحب أن ترددها على تلاميذها، عندما كانت تُدرس.

ما زالت تتذكر بتعاطف ما كتبه أحد تلاميذ الصف الثالث تعليقًا على ذلك: إذا كان الصباح يحمل الذهب في فمه، أتمنى أن "حمل" المساء الفضة. وبخطين من القلم الأحمر خطت أسفل الفعل، وهي تكتب بجواره: "يحمل وليس حمل". إلا أنها أرادت، في الدرس التالي، أن تجيب عن السؤال الضمني في تلك الفكرة، وشرحت قيمة الوقت.

إن ذهب الصباح، كانت تقول، ليس ملموسًا، مثل ذهب السلاسل والأساور، ولكنه رمزي. بكلمة "ذهب"، يرغب قائل العبارة في أن يشير إلى شيء مهم، شيء قيمته كبيرة. إن من يستيقظ مبكرًا يستطيع أن ينجز أشياء كثيرة، ومن ينجح في أن ينجز أشياء كثيرة، من الأرجح ستكون له حياة أكثر ثراءً وأجمل ممن ينام حتى وقت متأخر.

- لا بد أن نتخيل حياتنا مثل منزل نبنيه ببطء، حجرًا فوق آخر، والمكان الذي سيظهر فيه، ليس مكانًا ملموسًا، ولكنه مصنوع من الوقت. الآن أنتم هنا، ثم ستنتقلون إلى المدرسة الثانوية، ثم إلى الخدمة العسكرية. بعض منكم سيذهبون إلى العمل، والبعض الآخر سيلتحق بالجامعة. كل تلك المراحل ستكون الحجارة، التي بمرور الأعوام، ستبني منزلكم.

رفع أحد الأطفال الجالسين في الصف الثاني، ربما جوفانيني، أصبعه وسأل: مثلما نفعل بالليجو؟

- بالتأكيد، مثل المنزل المصنوع من الليجو.

- وفي النهاية ماذا سنفعل به؟

- في النهاية، يا أطفالي، يوضع السقف، وهكذا لا تسقط الأمطار في الداخل، وربما تكون هناك أيضًا مدفأة جميلة.

أحد الصغار الجالسين في الصف الأول، لا تتذكر اسمه، وقف وسأل:

- إذن، عندما نموت نخرج من هناك، مثل بابا نويل؟

عندئذٍ لم تستطع أن تجيبه، لأنه عند هذه اللحظة تمامًا دق جرس نهاية الدروس، وهرع الأطفال ليخرجوا من الفصل.

بينما تتأمل الفجر من نافذة المطبخ، وهي بقميص النوم، ممسكة بفنجان الشعير السائل في يدها، فكرت أنسيلما أن ربما لم يكُن هذا هو التفسير الوحيد. ربما كان الذهب يشير بكل بساطة إلى ضوء النهار، الذي بإطلالته الأولى على العالم، يتسبب في لمعان كل شيء. في تلك الساعة، حتى نباتات الدفلي والميس المتربة في الحديقة الصغيرة أسفل المنزل كانت تبدو كأنها تنتمي إلى حديقة ملكية.

.5

في صباح اليوم التالي، تناولت الإفطار هي ولويزيتو معًا في المطبخ، الواحد أمام الآخر، قطع من البسكويت بالمربى لها، وصحن من حبوب عباد الشمس، وقطع من التفاح له. كانت أنسيلما تنظر إليه وهو يتسلى بالدق على الطريقة الأمريكية بمخالبه على المفرش، بمشيته الشبيهة بمشية البطريق. كان يبدو كأنه مُهرج.

وبعد أن نظفت المائدة، فردت أنسيلما ذراعها للأمام نحوه، وقبل حتى أن تنادي على اسمه، كان لويزيتو قد حط فوقه.

قالت وهي تشعر كأنها عادت مرة أخرى لزمن المدرسة: إذن، نظرًا إلى أنك قد قبَّلتني بالفعل، ربما سيكون من الأفضل أن تتعلم اسمي. أنا اسمي أنسيلما، أ ن س ي ل م ا. إنه اسم بشع، أعرف هذا، ولكن ليست لديّ أسماء أخرى، وهذا كله خطأ الجد أنسيلمو، وأغنية كانوا يعلِّموننا إياها ونحن أطفال، تلك الخاصة بأنسيلمو الجسور، الذي ذهب إلى الحرب ووضع الخوذة. بشعة. وأنا صغيرة كنت أبكي دائمًا، ثم اعتدت على ذلك. تشجع وكرر خلفي: أن- سيل- ما. أن- سيل- ما.

حرك لويزيتو رأسه من جهة إلى أخرى، محاولًا أن يتعلم. من حين لآخر كان يفتح منقاره، وهو يحرك ببطء اللسان القصير والرمادي. وعندما ضربت الشمس مصراع الصوان -وبهذا عرفت أنسيلما أن الساعة التاسعة- أنهت الدرس. اغتسلت وارتدت ملابسها، وبعد أن أوصت لويزيتو بأن يتصرف جيدًا، خرجت لتبتاع الخبز.

عندما عادت إلى المنزل، قررت أن تنظم بعض الشيء. المطبخ، وغرفة النوم، والصالون كانت جميعها في أفضل حال، ولكنها لم تكُن قد وضعت يديها في غرفة الأولاد، ولا في المخزن الكبير في الشرفة منذ بضعة أعوام. ربما كان مليئًا بعشش العنكبوت وبالتراب، مثل الأماكن غير المسكونة في أفلام الرعب، أو كما الحال في غرف القصور المسحورة.

ولكن في الحقيقة، ألم تكُن هذه هي حياتها في الأعوام الأخيرة؟ كان يبدو كأن العصا السحرية في يد ساحر شرير غطت كل شيء بالجليد. كان يوجد ثلج في قلبها وجليد في أعضائها. ذلك الثلج وذلك الجليد كانا يصحبانها أينما ذهبت ويجمدان أيضًا كل شيء حولها.

متى بدأت تلك اللعنة السحرية؟

عند موت جانكارلو؟

أم قبل ذلك بكثير؟

متى كانت المرة الأخيرة التي شعرت فيها بأنها حية بالفعل؟

بدأت الذكريات تظهر كأنها قمة جبل جليدي. جزء منها كان هناك فوق، تنيره قوة الشمس، والجزء الثاني، مقارنةً به، أكبر بكثير، كان يقع في أسفل، مُجمدًا في الظلام العميق للمياه.

كانت ما زالت تتذكر نوع الحماس الفرح الذي اختبرته في مورانو، مع لويتزيتو، واثقتين كما كانتا أن الحياة ستمنحهما شيئًا استثنائيًا. ثم خفت ذلك الفرح العارم ببطء في السنوات التالية للتخرج. مرت بهما الأعوام وهما تدوران إيطاليا للقيام بدور المعلمات الاحتياطيات، قرى نائية في وسط أودية عدائية، فصول شديدة البرودة وتلاميذ مصابين بالتهابات جلدية بسبب البرد، أولياء أمور مُحرجين يذهبون ليقدموا البيض، والكرنب، والدجاج، وزجاجات الجرابا القاتلة المصنوعة في المنزل.

كان الانفعال شديدًا، على كل حال، في بداية أكتوبر، بمجرد الدخول إلى فصل جديد ورؤية كل تلك العيون المنتبهة، والخائفة نوعًا ما، وتلك القصّات المصففة بالمياه، والأحذية اللامعة والدفاتر الجديدة.

كانت توجد، عادةً، رائحة خاصة هناك بالداخل، فقط مع مرور الوقت فهمت أن الأمر يتعلق برائحة الأفرخ الصغيرة، أفرخ تركت عشها حديثًا، ولكن ما زالت رائحة اللبن، والمطبخ، والملابس المغسولة للتو، تحوم حولها. سرعان ما ستتعلم الطيران، ولكنها في هذه اللحظة تجلس هادئة خلف مقاعدها، عيونها الكبيرة مفتوحة، تملؤها الأسئلة.

في المساء، وفي الغرفة المستأجرة، كانت تصحح واجباتهم المدرسية بالقلم الأحمر والقلم الأزرق. أحيانًا كانت تعطي أيضًا الدروس لبعض البالغين الأميين. كانت المقاعد تطقطق أسفل تلك الأجساد الثقيلة. ربما كان ما يثقل أكثر هو ذلك الخجل الذي يتسبب في كل تلك التحركات. كانت ما تزال ترى أمام عينيها أياديهم الضخمة، التي دمرها العمل، أصابعهم التي تمسك بالقلم برقة، كأنه قطعة من الكريستال.

عندما لم تكُن لديها دروس ولا واجبات، كانت تمضي الأمسية في قراءة الشعر أو الروايات، أو تكتب خطابات للويزيتو. كانت هي أيضًا تُدرِّس في وادٍ منعزل، وكانت لديها هي أيضًا أمسيات كاملة تتأمل فيها الحياة.

في تلك الأعوام، أعوام بداية الشباب، كان المستقبل شيئًا غامضًا، ما زال يتفتح أمامهما. كان غموضٌ ما يلفه بالتأكيد، ولكن لم تكُن عدم المعرفة تلك تفزعهما ولا تسبب لهما أي قلق. كانتا واثقتين أن غدهما سيكون بالتأكيد مضيئًا.

لم يكُن هناك صقيع في تلك الفترة فوق قلبها، ولا جليد في أحشائها. كانت الثلوج ما تزال في الخارج خلف النافذة، وكان شيئًا جميلًا رؤية تلك الأشكال الهندسية الرائعة، التي تتحول، بسقوطها على الأرض، إلى مجرد نقاط مياه.

ألم يكُن هذا، في نهاية الأمر، هو أيضًا مسار الحياة؟ وألم تنتهِ بالطريقة نفسها أيضًا حياة لويزيتو؟ كان الموت ينتظرها خلف الزاوية، عندما كانت في قمة الحماس، في أثنائها كان يدخل إليها رويدًا رويدًا، نقطة تلو الأخرى، مثل محلول المورفين الذي يعطونه للمحتضرين.

تلك السنوات في الجبل، السنوات التي كانت الأفرخ الصغيرة تنتظرها وهي تزقزق في الفصل، كانت هي الأكثر امتلاءً بالحياة الحقيقية. في كل صباح كانت تستيقظ وهي واثقة بأن لوجودها معنى حقيقيًّا. ماذا كان يمكن أن يكون أجمل، أو محركًا للمشاعر أكثر من رؤية تلك العيون المنتبهة والمتشوقة لأن تتعلم؟

"شكرًا"، كان الأهل يهمسون في خجل وهم يقدمون هداياهم البسيطة. "نشكركِ على كل ما تفعلينه".

وكانت تجيب دائمًا: وما هذا الذي أفعله؟ أنا أؤدي واجبي.

كان يمكنها أن تختار المحاسبة، إلا أنها سجلت نفسها لتصبح معلمة ابتدائي، كان التدريس هو حلمها منذ الأزل، وشغفها. وكان يُقال، إن الشغف في عمل الأشياء هو مثل أن يعيش المرء حياته على نغمات موسيقى الفالس، متبعًا رشاقة الإيقاع. يصبح كل شيء أكثر يُسرًا.

استمرت في عملها في التخلص من أكوام من الأشياء التي لم تكُن تستخدمها في المخزن الصغير، ووصلت إلى مجموعة أسطواناتها القديمة. وفيما عدا بضع أسطوانات 45 لفة (عليها الأغنيات الفائزة في الدورات القديمة لمهرجان سان ريمو)، كانت الأسطوانات كلها 33 لفة. كانت أوبرات: *لا ترافياتا*، *وحلاق أشبيلية*، وريجوليتو، وغيرها كثير، وكانت محفوظة في علب صغيرة تغطيها الأتربة، فوق الأسطوانات الطويلة المحبوبة لأغاني نابولي، التي كانت هواية أخرى من هواياتها المفضلة.

عندما كانت تدرس في معهد التعليم الابتدائي، وبفضل اشتراك مخصص للطلبة، كانوا في كل يوم أحد بعد الظهر، مع لويزيتو وماريا بيا، وإنريكو (الصبي الوحيد في فصلهم)، معتادين على الذهاب لمشاهدة عروض للأوبرا على خشبة المسرح. في البداية، في الحقيقة، من مكانها في صالة المسرح، لم تكُن تستطيع أن تفهم كثيرًا مما يقوله المغنيون، ولكن بعد ذلك، من تكرار سماعهم، استطاعت أن تدخل إلى ذلك العالم، البعيد تمام البعد عن عالمها. بل، ودخل ذلك العالم في أعماقها، حتى إنها، وهي متزوجة، كانت تجد نفسها كثيرًا وهي وحدها، تردد أغنياته.

أخذت تنظفها من الأتربة واحدة تلو الأخرى، بعناية، ثم بدلًا من أن تعيدها إلى مكانها، أخذتها إلى الصالون ووضعتها على إحدى الموائد الصغيرة بالقرب من الأريكة، ثم عادت إلى عملها في التنظيف.

وبهدوء دقيق، أخذت تتخلص من كومة من المعدات الرياضية ملك لابنها وابنتها: مضارب التنس، المزالج ذوات العجلات، أحذية التزحلق على الجليد البلاستيكية ضخمة الحجم، كرات القدم غير المنفوخة، عصي الجمباز الإيقاعي، وزوجين من أحذية الرقص اللذين كانا في يوم ما من الستان الوردي والآن أصبحا بلون ورقة قديمة مكثت طويلًا في الشارع.

كم من الأعوام مكثت تلك الهوايات المُجهضة هناك، لتزحم الغرفة الصغيرة؟ ربما عشرين عامًا، ربما أيضًا أكثر من ذلك. كانت قد خدعت نفسها وفكرت أنها ربما أفادت الأحفاد في يوم من الأيام، وكانت تتخيل أنها ربما استطاعت أن تقودهم إلى هناك في ظهيرة أحد الأيام التي يشعرون فيها بالملل الشديد، وأنها سترى عيونهم تلمع أمام كل تلك الروائع المخفية.

إلا أن الأشياء سارت بطريقة مختلفة تمامًا. في أحد أيام الآحاد المُمطرة في شهر نوفمبر، عندما لم تكُن تعرف كيف يمكنها تسليتهم، أخذتهم أمام ذلك المكان المسحور، ولكن كان رد الفعل الوحيد الذي خرج من أفواههم، بالإضافة إلى فكهم السفلي الذي فُتح كان: حسنًا؟

شجعتهم مبتسمة: هناك عديد من اللعب هنا بالداخل.

أجابوها بصوت واحد: وأين هي؟

- ها هي!

لم تنسَ أنسيلما قط نظرتهم، كانت مزيجًا من الشفقة وبعض السخرية.

- إنها أشياء قديمة!

عندما كانت تسمع قريناتها وهن يتحمسن من أجل زيارة أحفادهن، لم تكُن تستطيع أن تفهمهن. في الحقيقة، كانت تشعر بالشفقة بعض الشيء عليهن، فلكي يتخلصن قليلًا من الوحدة كانت لديهن القدرة على تحمل أي شيء.

يبدو لأنسيلما أن أحفادها هبطوا من كوكب آخر، فهم شاردون، لا يمتنون لشيء، لا قدرة لديهم على الشعور بشغف سوى لتلك العلب المضيئة التي يمسكون بها دائمًا في أيديهم.

في البداية كانت تشعر بالذنب جراء ذلك الشعور غير العادي، وعندما تحدثت عن ذلك الأمر مع زوج ابنتها وزوجة ابنها وابنها وابنتها، أجابوها وهم يرفعون أكتافهم قليلًا: وماذا تريدين منا أن نفعل؟ الآن هذا حال كل الأولاد.

عندئذٍ بدأت حياتهم تنفصل عنها، كأنها قارات دفعتها اندفاعات الصفائح التكتونية. أصبحت المكالمات طقسية والزيارات، والعبارات والأعياد، كل تلك أعياد الميلاد، الواحد منها أسوأ من الآخر، كل منها أحقر من الآخر، حتى ذلك العيد الأخير الذي جاءت فيه لزوج ابنتها تلك الفكرة الذكية بأن يعلق تمثالًا لبابا نويل منفوخًا، خارج الشرفة، ولم تتردد هي في أن تقطع الحبل الذي كان يربطه بالدربزين، ومِن ثَمَّ جعلته يسقط من الدور الخامس إلى أسفل، وكان ذلك كارثة بالنسبة إلى الأطفال: والآن من الذي سيحضر لنا الهدايا؟، قالوا وهم يبكون.

ولكي لا نتحدث عن المداهنات المقززة لزوجة ابنها، التي لا تفكر سوى في تصميم الشقة التي، يومًا ما، بالتأكيد، ستؤول إليها. كانت تدور كالبومة بين الحجرات، وهي تهمس لزوجها الخاضع لها بالكامل "هنا سنضع نافذة، وهنا سنهدم الجدار وسنفتحها على حجرة العجوز".

تسبب هذا أيضًا لها في برودة القلب، تلك الفكرة بأنها أنجبت أبناءً، وبأنها ندمت لأنها فعلت ذلك.

دقت أجراس الكنيسة منتصف النهار، وأصبح المخزن الصغير الآن فارغًا، وكل ما كان يحتويه جُمع في حقائب سوداء كبيرة، جاهزة للرمي.

ومن خلف الستائر كان لويزيتو يتابع بحرص ما كان يحدث في الشارع.

اقتربت منه أنسيلما، كانت الشمس في ذروتها، لم يكُن أحد يُرى في الطرقات، فقط بعض السيارات التي كانت تمر بلا ظلال، ونوافذها مغلقة. كان هناك كلب منقط لسانه يتدلى يدور باحثًا عن مكان يشرب منه. طوارئ الكلاب، كان المذيع سيقول.

التفتت أنسيلما نحو الببغاء: ماذا بك؟ هل أنت حزين؟

حدق فيها لويزيتو، وهو يحني رأسه إلى ناحية ثم إلى الأخرى، كأنه ينظر إلى عمل فني.

سألته أنسيلما وهي تلمس بالسبابة طرف الريش الذي افترضت أنه قريب من قلبه الصغير: أنت أيضًا يوجد ما يثقل على قلبك؟

وشعرت بقلبه الدافئ وهو ينبض بسرعة شديدة.

- هل تشعر بالحنين لشيء ما؟

عندئذٍ فرد لويزيتو جناحيه، وكانت عيناه سوداوين مثل الفحم، تلمعان بشدة. فتح فكه، وأخرج لسانه وقال: أ- أ- نسيلما.

6.

في ظهيرة أحد الأيام، سمح الحر بهدنة، وطوت نسمة هواء أغصان الميس أسفل المنزل، وأخذت ترفع الستائر كأنها أشباح. كانت أنسيلما تنام على المقعد، واستيقظت فجأة من صوت أحد المصاريع الذي أُغلق فجأة. وفوق البنايات بدأت السحب القاتمة تتجمع.

في ذلك اليوم، على الغداء، تحدث لويزيتو من جديد وقال "شكرًا!"، عندما وضعت أمامه أنسيلما الصحن وبه التفاح والموز.

وهكذا قررت أنه لا بد من الإصرار على تعليمه. والدرس الذي تلا ذلك لم يكُن مختلفًا كثيرًا عن ذلك الذي فعله "روبنسون كروزو" لخادمه "فرايداي". جلست أمامه، وبقلم في يدها، أشارت إلى نفسها، وهي تكرر اسمها يسبقه الضمير "أنا".

ثم، وهي تلمس بالكاد بطن الببغاء، كررت: أنت لويزيتو... أنت، لويزيتو.

قطع الدرس، صخب رعد، بالقرب من البناية.

ارتعش لويزيتو وهو يهز ريشه، وأخذ ضوء مائدة المطبخ يتذبذب، ثم انطفأ.

فتحت اندفاعة من الرياح النافذة، وأسقطت المجثم الخالي الآن من الببغاء، وأطارت أرضًا الصحف القديمة الموضوعة على حافة النافذة، وضربت بعنف باب الممر.

احتمى لويزيتو بزاوية، بينما أسرعت أنسيلما لتغلق النوافذ، بقلق. ماذا كان سيحدث لو ابتلعت تلك الرياح المندفعة رفيق حياتها الجديد؟

فجأة أدركت أنها لم تعد تستطيع الحياة من دونه، وأنها لا بد أن تتعلم أن تكون أكثر حرصًا، ليس فقط مع النوافذ، ولكن أيضًا مع الجيران، في الحالة التعسة، إذا حدث في يوم أن قدم أحدهم ليطالب بملكية الحيوان.

الحيوان؟

عندما فكرت في تلك الكلمة، شعرت ببعض الخجل.

هل كان لويزيتو حيوانًا؟ أم شيئًا مختلفًا؟

هل كان بالفعل حيوانًا؟

وفي إطار الاحتقار للمصطلح المتداول، ينسى المرء بسهولة شديدة وجود تلك الكلمة: النفس. أجل، الحيوان هو أيضًا يمتلك نفسًا. ولم تكُن متأكدة، في كل الأحوال، أنه يمكن أن نقول الشيء نفسه على أغلب البشر. زوجة ابنها على سبيل المثال.

الآن تضرب الأمطار بعنف الزجاج، وتصاعد صوت صفارة الإنذار لسيارة ما من الطريق، تغطيها أصوات صفارات سيارات الإطفاء. لم يكُن من الممكن الاستمرار في التنظيم، لذلك جلست على المقعد، وغطت قدميها ببطانية صغيرة، ونادت على لويزيتو ليقترب.

وقف الببغاء على ظهر المقعد، ومن هناك نزل إلى مسند الذراع، وجثم، نافخًا كل ريشه. "*كراك، كراك، كراك*" كان يهمس بهدوء، كأنه حوار مع نفسه قبل أن ينام.

الشيء الوحيد الذي أبعدته من المنزل، عند موت جانكارلو، كان مقعدًا قديمًا من القماش المخملي المضلع بني اللون. ذلك المقعد كان شيئًا مثل العرش، كان زوجها يشغله تقريبًا بثبات، عندما يكون في المنزل. بعد الغداء كان يغفو عليه وهو يغط في نومه وفمه مفتوح، والساعات الأخرى إما كان يقرأ الصحف أو يمسك بأوراق في حضنه، متظاهرًا بأنه يعمل.

شعر الأبناء بالضيق من قرارها المفاجئ هذا.

- إذا كان قد اتسخ، كان يمكن أن تأخذيه ليُغسل!

- إذا كنتِ قد أخبرتِنا لكنا أخذناه نحن.

ولكنها، وهي جالسة بالفعل في مقعدها الجديد، المكسو بقماش تغطيه الورود ومبهج، أنهت الحوار قائلة: لم يكُن سوى مقعد قديم.

لم يكُن سوى مقعد قديم، وكان يُذكِّرني بكابوس وجود أبيكم في هذا المنزل، كان هذا ما كان يجب عليها قوله، ولكنها كانت تعرف منذ فترة أنه لم تكُن هناك فائدة من استنفاد الكلمات مع ولديها؛ فمن خلال عمل، باهر جدًّا، من المناورات، استطاع جانكارلو أن يحولهما، بمرور الوقت، إلى مستنسخين منه. كانت العوامل الوراثية، بالتأكيد، قد ساعدته كثيرًا، وهكذا لم يتبقَ لها سوى أن تنسحب في زاوية ما، في محاولة منها للبقاء على قيد الحياة.

كانت إحدى مناقشاتهما الكبرى، ربما الأخيرة -وكان الابنان على وشك الدخول إلى مرحلة المراهقة- كانت بهذا الصدد بالذات: ماذا يمكن أن نعده تربية وما يمكن أن نرفضه.

قالت هي، وهي تعترض على بعض تدخلاته غير المناسبة: إنك تتلاعب بهما، تريد أن تحولهما إلى جنديين صغيرين، بأفق مسطح.

وكان رده المهذب عليها: وأنتِ رأيكِ مليء بالأفكار الحمقاء.

- لقد ربيت عشرات، بل ومئات من الأطفال.

- آه، فعلاً؟ من الواضح أنكِ علَّمتِهم بطريقة سيئة، نظرًا إلى أنهم قد طردوكِ من المدرسة.

- لقد اخترت أنا أن أتركها.

- لقد دُعيتِ بإلحاح إلى أن تقومي بذلك، وفي كل الأحوال لن أسمح لكِ بأن تحطمي ابني.

ولتعثر من جديد على مشاعر تجاه ولديها، اللذين سرعان ما أصبحا غريبين، كان على أنسيلما أن تعود إلى الوراء، إلى فترة الحمل، إلى اليوم الذي فيه وضعتهما في العالم، وضمت إلى صدرها الجسدين المرتعشين والرطبين.

تزوجت وهي في التاسعة والعشرين، وفي سن الحادية والثلاثين أصبحت حبلى. كانا ما زالا يعيشان في ميسترى، وبالنسبة إليها كان جانكارلو ما زال أمير أحلامها، الرجل الذي أقسمت على أن تحبه إلى الأبد وتخلص له إلى الأبد أمام القس، وكل أقاربها الواقفين في صفوف والدموع تملأ عيونهم.

أجل، في ذلك اليوم شعرت بأنها على قيد الحياة، على قيد الحياة بطريقة مدهشة. تتذكر بدقة كل لحظة: الفرح، والحماس، والانفعال المضيء بأنها هي المختارة. مصفف الشعر، وارتداءها لذلك الثوب الفخم، ناصع البياض، وقائمة الهدايا وعلب الحلوى (هدية العرس)- التي كانا قد اختاراها معًا، يدًا بيد- وشعورها بالامتنان "للسماء" التي جعلتها تلتقي بأروع رجل في العالم. في تلك الفترة، كانت العلاقات ما زالت جيدة بينها وبين "ساكن" العالم العلوي، وهكذا في كل صباح، وهي تعقد يديها، كانت تردد: أشكرك يا رب، أشكرك على أنك جعلتني ألتقي بجانكارلو.

في اليوم السابق للزواج، أحضر هو لها هديته الملفوفة في ورق من أوراق لف الهدايا الفلورنسي. لم تكُن مجرد خاتم تافه، الهدية التي يهديها أي خطيب، بلا أية خيالات، لخطيبته، ولكنه كان كشكولًا ذا غلاف سميك، وفي داخله، كانت مكتوبة بالقلم الحبر، بخط اليد، أشعارًا. كان الخط هو خط جانكارلو الضيق والحاد.

وعندما خرجت وهي تتأبط ذراعه من ظلال الكنيسة، تصحبهما نغمات موسيقى العرس، همست له في أذنه: إنها رائعة! هل كتبتها أنت؟

التفت جانكارلو، بالكاد، وهو يبتسم: لم يكُن في استطاعتي أن أفعل ذلك، لو لم تكُن بجواري ملهمتي الرائعة.

وفي الأعوام التالية فكرت كثيرًا في تلك الأمتار القليلة التي فيها تآبطت ذراعه. في الخارج كانت سماء الصيف الساطعة تتلألأ، وبعد الظلال في الداخل، كانت الشمس تسطع في الخارج. في تلك المسيرة التي بدت بلا نهاية، عادت إلى ذهنها كلمات شخص استيقظ من غيبوبة. كان يحكي كيف شعر بأنه انتقل من الظلام إلى ضوء عظيم كان ينتظره في نهاية النفق المظلم، وكان ذلك الضوء هو المساحة الفرحة والأبدية للموت، شعور بالسلام لم يختبره قط من قبل، وعاد رغمًا عنه إلى الوراء، تناديه أصوات أحبائه والطاقم الطبي. في تلك اللحظة كانت هي أيضًا تشعر بالشيء نفسه، بأنها تركت وراءها الظلال المليئة بالشك لمرحلة الشباب لتدخل إلى ملء ضوء النضوج.

وفي المدخل، وبعد القبلات الطقسية التقليدية، صعدت إلى السيارة مع جانكارلو، يتبعها موكب من السيارات التي تدق أبواقها، وحولهم، كان القمح قد حُصد من مدة قريبة، وحول اللون الأصفر المكثف للجُذامات كانت تتطاير الغربان والحمام، وكان يبدو أن الحصادة قد نشرت الأتربة اللامعة على المشهد كله، وكل شيء بدا كأنه يسبح، مغمورًا في لمعان الذهب.

كان حفل الاستقبال قد نُظم في مزرعة إحدى قريبات والدة جانكارلو. وكان عازف الأكورديون، السمين، يجلس على مقعد صغير جدًّا، ويحاول أن ينعش الموائد الطويلة للمدعوين. ولكن فجأة انفجر صداع رهيب في رأس أنسيلما، زاده سوءًا النوع المتدني للبروسيكو الذي استمروا في سكبه لها. ومن ذلك الغداء الذي استمر لما لا نهاية، لا تتذكر سوى وجه حماتها، التي كانت ترتدي قبعة لا تختلف كثيرًا عن قمع الآيس كريم، وكانت تتحدث، وتتحدث، وتزيد من الحديث. كان الموضوع، بطبيعة الحال، هو ابنها الذي أثبت رجولته بالفعل منذ كان في رحمها، من الطريقة الحاسمة التي كان يركلها بها.

ولكي لا ينفقوا النقود بلا فائدة، اقتصرت رحلة الزفاف على بضع رحلات في الجوار. اليوم الأول إلى فينسيا، ليعطيا الطعام للحمام في سان مارك، والثاني إلى دير بومبوزا ليجربا عربة خاله الجديدة ماركة فيات 850. الرحلة الثالثة (كانت أكثرهم إرهاقًا)، وكانت على مركب على نهر البرينتا، لزيارة فيلل على طراز فينسيا.

الليلة الأولى للزواج، وعلى الفراش المتسع الذي أعدته الأم ووضعت عليه لحافًا ورديًّا ببنفسجي ووسائد من الكروشيه، لم يستطع جانكارلو أداء واجب الزوجية.

"للتعب مزاحه السيئ"، همس قبل أن يغط في نوم عميق. ابتسمت أنسيلما، وفي أعماقها شعرت بارتياح، كانت مضطربة جدًّا لمواجهة حدث بهذه الأهمية.

لكنها لم تستطع أن تنام. كان هناك ناموس ضخم مثل الهليوكوبتر يطير بسرعة حول الفراش، وكانت المرتبة قصيرة ومرتفعة، ومن الطريقة العجيبة التي كانت تَصِرّ بها، لا بد أنها كانت ملكًا لأجداده، أو أجداد أجداده.

كان العيب الوحيد في ذلك اليوم هو غياب لويزيتو. كانت قد اتصلت بها في الصباح نفسه لتقول لها إنها تأسف بشدة، فلا بد أن ترقد في الفراش بسبب دور إنفلونزا صيفية سيئ. بالنسبة إلى أنسيلما كان الأمر محبطًا حقًا، نظرًا إلى أنها كانت قد حُرمت من والديها منذ وقت قريب، وكانت صديقتها هي التمثيل الوحيد لماضيها. تساءلت لو كان المرض مجرد ذريعة، فهي لم تشاركها قط فرحتها، بل، في كل مرة كانت تحدثها بحماس عن جانكارلو، كانت تبدو متشككة، وكانت تردد: هل أنتِ متأكدة؟ هل أنتِ واثقة بالفعل أنه الشخص المناسب؟

لم تكُن أنسيلما تفهم شكوكها.

قالت لها في المرة الأخيرة التي تقابلا فيها: سأفقدك.

- أعدكِ أن هذا لن يحدث، فأنتِ أعز صديقاتي، الآن وإلى الأبد.

حتى وإن لم تكُن مخلصة لذلك الوعد، إلا أنها في تلك اللحظة كانت واثقة بصدق كلماتها: لن يستطيع شيء، ولا أي أحد أن يمس مشاعرها، التي تكنها منذ الطفولة للويزيتو.

كانت أصوات الرعد قد ابتعدت الآن، وهدأت الرياح أيضًا، وتجرأت أنسيلما وفتحت النافذة قليلًا، مستغلة نوم لويزيتو. كان الهواء منعشًا بطريقة رائعة، وقد ابتلع الرائحة السيئة للتلوث، وفوق المدينة كانت تسود رائحة الأوزون، علامة على أن عاصفة حدثت للتو. كان سيكون شيئًا جميلًا التمكن من ترك النوافذ مفتوحة لدخول ذلك الهواء المنعش. لا بد أن أنظم أموري، قالت أنسيلما لنفسها، وعلى الفور خطر في بالها شبك صيد السمك المصنوع من الورق المقوى الذي يتدلى من سقف أحد المطاعم في شيسيناتيكو.

إذن عليها أن تبتاع ذلك الشبك لتضعه فوق النوافذ، وهكذا ستمنع لويزيتو من كل طرق الهروب.

للأسف كان عصر السبت، ولكي تنفذ خطتها عليها أن تنتظر على الأقل حتى يوم الاثنين.

وحتى لا تضيع الوقت، بدأت تأخذ القياسات. وبينما تصعد على السلم المتحرك، أخذت تفكر في زوجة ابنها، إذا سقطت، وكسرت إحدى عظام الفخذ، لن تفكر مرتين قبل أن تضعها في دار للمسنين، بل، كما يطلقون الآن على تلك القبور المبيضة، في "مقر السنوات الفضية". كانت ترى بالفعل الوجه المطاطي لابنها وهو يهمس لها وبراءة يهوذا في عينيه: "إن هذا لخيرك، يا ماما، هناك سيُعتنى بكِ نهارًا وليلًا. ثم في الظهيرة هناك أيضًا بعض الموسيقى"، وحتى إن كان المرء على كرسي متحرك، أو حتى بالقسطرة، يمكنه الرقص.

"سيُعتنى بكِ"، العبارة السحرية التي تخرج دائمًا من أفواههم. "سنشعر بالارتياح أكثر.. إذا أصبحتِ أقل وحدة... حان الوقت لتسمحي لنفسكِ ببعض الرفاهية".

"وما رفاهية شخص يعيش في دار للمسنين؟" أجابت فجأة منذ بضعة أسابيع.

"رفاهية أن هناك من يعتني بكِ أخيرًا" أصرت ابنتها بصوت مُلحن "شخص يُدللكِ، يطهو لكِ إذا لم ترغبي في الطهو، يحضر لكِ مشترياتك. وبطبيعة الحال سندفع نحن كل شيء.

- بطبيعة الحال.

كان ذلك تعليق أنسيلما، قبل أن تضع سماعة الهاتف مكانها.

.7

كان هناك حلم متكرر، في العشرين عامًا الأخيرة، حلم يسبب اضطرابًا لأنسيلما في نومها. كانت تجد نفسها في مكان إجازة، مع زوجها وابنيها المراهقين. كانوا يجلسون في بار في مكان مفتوح يتناولون آيس كريم، كأسًا من الكرز الأسود لهم، وشرابًا مهضمًا لها. وصل الآيس كريم بسرعة، أحضرته فتاة جميلة ترتدي مريلة، ولم تحضر لها الشراب. وأمام اعتراضات أنسيلما، التفتت الفتاة لها بابتسامة عابرة وساخرة بعض الشيء، مبتعدة. وبعد بضع ثوانٍ، اشتمت رائحة غريبة جدًّا، برية، مثل رائحة ذئب، وأمامها وقف شخص أسود ضخم يرتدي أقراطًا ذهبية، جمجمته تلمع كأنها كرة بولينج، ورداءً داخليًّا مثقوبًا ومنه تبرز ذراعان كفرعي سيكويا عملاقة وقعتا في الحبر. كان يمسك في يده صينية منها يتصاعد شرر غريب. "هل هذا السائل للسيدة؟" سألها، وهو ينحني نحوها، وبينما تأخذ الكوب، كان يبدو لها أن شفتيه الكبيرتين بلا تناسق ترغبان في أن تشفطاها. "مشروب، وليس سائلًا" حددت أنسيلما –التي كانت دائمًا تتصرف كمعلمة- وشربته في دفعة واحدة. وأمامها، كان ماسيميليانو يتناقش مع أبيه حول اختيار المدرسة الثانوية، بينما جوليا كانت تراقب، بوجه مضجر، الشباب الذين يذهبون ويجيئون أمام المائدة، وفجأة بدأ رأسها في الدوران، ومن قدميها تصاعد تنميل غريب، كأن النيران الملجومة في مركز الأرض تشتعل في جسدها: حرارة مفاجئة على وشك أن تنفجر في طاقة رهيبة، وبدا لها أنها ابتلعت الشمس، سيف من الضوء يخرج من حدقتيها، بينما أصابعها ويديها وقدميها تتحول لكهوف من الصلب، وكانت متأكدة أنها إذا تحركت ستقلب كل شيء. كان ذلك السائل، في الواقع، هو شراب طبي، بينما نما الفراء لدكتور جايكل، بدأت هي تتحول لآلة حرب. لم يكُن زوجها وابناها الجالسون أمامها يدركون أي شيء. اشتعلت الطاقة الكامنة في أنسيلما، في اللحظة التي فيها وضعت جوليا العلكة المعتادة، وبدأت تلوكها بفم مفتوح، قذفت أشعة غير مرئية اندفعت من أصبعها بالفتاة بعيدًا عشرات الأمتار، بين الصدمة المرعبة للزوج والابن. في تلك اللحظة، بانتظام، كان الحلم يتفجر ملقيًا بها، بشظاياها، في غياهب ظلمة الليل.

كانت توجد أيضًا تنويعات على الحلم، بمرور السنوات. في إحدى الليالي، استطالت أصابعها كأنها حلزون ثعبان البوا، وأخذت تتزحلق على رقاب الآخرين، وفي حلم آخر، من السبابة التي تحولت إلى مدفع رشاش، أخذت تطلق طلقات كاتمة الصوت بينما تخرج من عينيها نقاط طائرة من السم، جاهزة لتزرع نفسها في لحم الضحية القادمة.

مع مرور الوقت، تحول الحلم من كابوس إلى واحة سلام. فعندما كانت تخلد للنوم، وظهرها ملتفت بعناد لزوجها، كانت أنسيلما قد تعلمت أن تستدعي قدومه، مثل المرضى الذين يتضرعون طلبًا للشفاء في معبد إله الطب أسقليبيوس.

متى بدأت في إدراك كل شيء؟

لم تعد تستطيع التذكر.

كانت السنوات الأولى من الزواج سعيدة تقريبًا. كانت أعمال جانكارلو تسير على ما يرام، كان يسافر في كل أنحاء إقليلم تريفينتو، كممثل لشركة خِلِّ الأسنان، وكانا يسكنان في شقتهما الصغيرة فوق شقة الأم، وكان هو يتصرف مثل كل أزواج صديقاتها. في بعض الأيام كان دمثًا وذا مزاج جيد، إلا أنه في البعض الآخر كان يصبح غير مهذب بعض الشيء.

كانت أنسيلما تعرف حساسيته وكانت تعرف أن ذلك الشكل من المشاعر الحادة لكل ما لدى الشعراء، قبل أن تكون هبة، هو أيضًا مصدر معاناة رهيب. ولهذا، لم تقلق قط على التغييرات المفاجئة لمزاجه. بل، في الخفاء، كانت فخورًا لكونها تعيش بجوار رجل مثله، قادر على أن يقبض على كل لحظة من لحظات الحياة المُركبة، سريعة التلاشي.

في وقت الفراغ، كانا قد استمرا في الذهاب في رحلات إلى الجبل. في الحقيقة، لم يكُن هو لديه الرغبة في الذهاب، ولكنها كانت تجبره على ذلك لأنها كانت تعلم فائدة مساحات الهواء النقي والمرتفعة لحالته النفسية. ولكن الآن أصبح زوجها يفضل التردد على قاع الوادي وما به من حانات أكثر من التردد على القمم.

وكان في إحدى تلك الرحلات أن استجمعت هي شجاعتها -بعد أن تجرعت بعض البيرة المنعشة وأكلت شوربة بازلاء ناشفة وسجق فيينا- لتسأله السؤال الذي سألته، من أعوام عديدة، للويزيتو: ما الشعر، في رأيك؟

نظر إليها جانكارلو طويلًا، قبل أن يجيبها بعد ذلك، وهو ممسك بيدها، وهمس لها: إنه عيناكِ عندما تنعكسان في عينَي، وعيناي عندما تنعكسان في عينيكِ.

في ذلك المساء، في أثناء عودتهما، تقريبًا لم يتحدثا، وكانت أنسيلما تشعر بأنها محاطة بشيء كالسحابة الساحرة التي تحويهما معًا، وتحولهما إلى كيان خاص جدًّا. ربما كان بفضل تلك السحابة أنهما في تلك الليلة، أخيرًا، استطاعا أن يجلبا للحياة ابنهما الأول.

السنوات التالية طارت –حرفيًا- بين الحفاضات والرضعات، الاستيقاظ الليلي، وفظاظة الزوج التي زادت (كان تغيير الجو يؤثر على جرحه ويجعله يتألم أكثر)، الغزوات المتغطرسة لحماتها، العودة للتدريس (عندما بدأ ماسيميليانو الحضانة)، ثم، بمجرد أن استعادت قواها، الحمل في جوليا الذي لم يخلُ من المضاعفات.

كانت سنوات غير سهلة بالمرة، ولكن المتاعب التي كان عليها مواجهتها وجدتها على أهبة الاستعداد. كانت تعرف –كانت أمها قد قالته لها دائمًا- أن الزواج ليس كله زهور وورود، ولكن كانت مدركة بأن اللحظات المُرة -التي يعتني فيها الواحد بالآخر- هي الأساس المتين الذي يساعد حبهما على الاستمرار إلى الأبد.

كانت ما زالت لديها الطاقة، والقدرة على المصارعة. في كل صباح كانت تستيقظ، وكانت تعلم في أي اتجاه عليها أن تذهب.

وبعد ذلك؟

وبعد ذلك جاء ذلك اليوم. كان الطفلان في الفراش مريضين بالحصبة، وجانكارلو في فالسوجانا في عمله لتمثيل شركته، وكانت الحماة بعيدة تزور بعض الأقارب، وكانت هي وحدها في المنزل. ولتبتاع مشترياتها، اضطرت إلى أن تتصل بمحل البقالة الواقع في الميدان. كانوا غاية في اللطف معها، إلى حد أن مالك المتجر بنفسه أخذ لها المشتريات قبل الغداء.

ولتشكره على جميله، قدمت له فنجانًا من القهوة. وجلسا في المطبخ ليتحدثا وهكذا اكتشفت أن ذلك السيد المبتسم والممتلئ رفيق دراسة قديم لجانكارلو.

سأل السيد نينو، هكذا كان يُدعى، عن أخبار زوجها، وكان لم يره في الجوار منذ فترة. تنهدت أنسيلما، وقالت إنه في الفترة الأخيرة كثيرًا ما يكون عصبيًّا، بسبب جرح قدمه.

أومأ رفيق المدرسة القديم: آه أجل، المسكين، كل هذا بسبب ذلك الحادث الغبي بالدراجة النارية، كثيرون يحدث لهم هذا بعد الحفلات! ينسى المرء نفسه قليلًا في شرب الكحوليات ثم بعد ذلك يعتقد أنه سيتخطى أيضًا الأشجار.

ذلك المساء، بعد العشاء، شعرت أنسيلما بالتعب وتقيأت. وبعد أن فحصت درجة حرارة الطفلين، ألقت بنفسها في الفراش وهي تشعر برغبة شديدة في البكاء، ولكنها كانت متوترة بشدة لتتمكن من هذا.

وفي أثناء تتبعها لظلال مصابيح الطريق المنعكسة فوق السقف -كان هناك بعض الرياح التي تطوحها مثل الأشباح- عادت إلى ذهنها عبارة لويزيتو: احترسي، في أثناء فترة المغازلة لا يُظهر المرء وجهه الحقيقي. الوجه الحقيقي يظهر فيما بعد.

في تلك الحقبة كانت قد تركت تلك العبارة تنزلق، بلا أي اهتمام، مقتنعة أن الأمر يتعلق بنوع من الغيرة، والمرارة لعانس، ولكن الآن كانت تعرف أن لويزيتو، للمرة الثانية، كانت تتنبأ بالمستقبل.

سألت زوجها بمجرد عودته ذلك المساء من رحلته: هل كانت لديك دراجة نارية؟

- وماذا يهمكِ أنتِ من ذلك؟

أجابها، تقريبًا وهو يزمجر.

ومن اليوم التالي، ليجرحها، بدأ تعبيرًا جديدًا غاضبًا.

- وماذا تعرفين أنتِ، يا من وُلدتِ في فوسالون!

كأن مولد المرء في مبسترى يمنحه تميزًا كبيرًا.

8.

في صباح يوم الأحد، أيقظ لويزيتو أنسيلما ووقف برقة على الفراش، وبدأ يعض برفق شحمة أذنها اليسرى.

ومن الكنيسة الأبرشية القريبة -التي تقع بين جراج وسوبر ماركت، ويعلوها برج للجرس يشبه أبراج الكهرباء ذات الجهد العالي- كانت الأجراس تدق بصخب.

استيقظت أنسيلما، وارتدت المريلة، ثم تناولا الإفطار معًا، كالمعتاد.

وبينما كانت تغسل أطباق الأمسية السابقة، حط هو على كتفها، وهو يبقبق بثرثرته المعتادة الهادئة. وعندما حانت لحظة تجفيف الأطباق، طار حتى وصل إلى منشفة الصحون وأحضرها لأنسيلما.

قالت له: يا لك من كنز!، وهي تلتفت لتقبِّله في وجنته المغطاة بالريش.

وعندما انتهت من الأعمال المنزلية، ارتدت أنسيلما ملابسها وذهبت إلى الصالون. في إحدى الزوايا، مختبئًا تقريبًا أسفل إحدى الستائر، كان يوجد الجرامافون القديم. كان أحد الأشياء القليلة التي استمرت من حياتها قبل الزواج. في تلك الفترة، كانت قد ادخرت لمدة عام كامل لتستطيع شراءه، كان ألماني الصنع، ومن أفضل النوعيات، وكان صحبة جيدة جدًّا في سنوات التدريس الطويلة في الأودية النائية.

بعد الزواج، في الحقيقة، لم تستطع استعماله، بسبب الالتزامات بعض الشيء، ولكن أيضًا بسبب أن جانكارلو كان يكره الموسيقى، وخصوصًا تلك التي كانت هي تحبها. إذا كان القرار يرجع إليه، كان سيستمع فقط إلى مقطوعة "ركوب الفالكيري"[3] لفاجنر، -لأنها كانت تتسم بالعظمة - و"الفصول الأربعة"[4] لفيفالدي –لأن فيفالدي كان من فينسيا، أي من ميسترى، ومن ثَمَّ كان "ابن بلده".

في الفترات الأولى حاولت أنسيلما أن تدفعه إلى الإعجاب سواء بمقطوعة "الناي السحري"، العمل المفضل للويزيتو، أو بأغاني نابولي التي كانت تعشقها، ولكن كانت النتيجة هي أنها سمعته يُعرف عمل موتزار بأنه "فوضى اصطناعية"، وعن الأغاني بأنها ألحان همجية. "وما دخلنا نحن بتلك الأغنيات؟ إننا لا نفهم حتى ماذا يقولون". وهكذا أُسدل الغطاء على سطح الجرامافون وظلت هناك، كأنها أحد شواهد القبور.

من يدري إذا كان صالحًا حتى الآن للاستخدام؟

وبأصبعها لمست أنسيلما الإبرة، التي بدت لها سليمة، وأيضًا بدا لها أن الذراع تتحرك بلا أي مشكلة. كانت وصلة الكهرباء في مكانها، وهكذا أخذت الأسطوانة الأولى ووضعتها برقة فوقها، وبعد بضع ثوانٍ من الخشخشة المترددة، غزت الموسيقى الحجرة.

أيتها الحياة، يا حياتي

أيها القلب، يا قلبي

لقد كنتِ أنتِ حبي الأول

الأول والأخير

وستظلين إلى الأبد[5]

عبَّر لويزيتو عن إعجابه بأن رفرف بجناحيه، وطارت ساعات الصباح حرفيًّا، تهدهدها أنغام نابولي العذبة.

في لحظة ما، وهي تغير الأسطوانة، شعرت أنسيلما أن هناك من يدق بقوة على جدار الصالون، ولكن لم تنتبه لهذا كثيرًا.

بخلاف جانكارلو، كان لويزيتو يعشق الموسيقى، يعشقها إلى حد أنه قبل الغداء بقليل، لم تستطع أنسيلما أن تقاوم وحاولت أن تؤدي معه بعض الحركات الراقصة.

وفي أثناء رقصة البولكا، دق جرس الهاتف، كانت جوليا.

- ماما، أهذا أنتِ؟

- ومن سيكون سواي؟

- هل التليفزيون مفتوح؟

- لا.

- هل هناك أحد معكِ؟ أم بمفردكِ؟

- بمفردي جدًّا.

- هل أنتِ متأكدة؟

- هل أبدو لكِ غبية؟

- لا، ولكن نقرأ في هذه الأيام أشياء بشعة، عن أن هناك كثيرًا من الناس يدخلون إلى منازل المسنين، لسبب أو لآخر. أنتِ لا تفتحين الباب لأحد، أليس كذلك؟ على كل حال سنعود خلال عشرة أيام.

- حسنًا.

قالت أنسيلما، وهي تغلق الهاتف.

واستمرت الموسيقى لبعد الظهر أيضًا. وبينما هما جالسان على الأريكة، كانا يستمعان إلى الموسيقى "الليلية[6]" لشوبان. إلا أن تلك الموسيقى جلبت الحزن إلى قلبها. كانت تذكّرها بالغروب، والأشياء التي تنتهي، والأشياء التي انتهت بالفعل، وحملتها إلى الوراء في الزمن، لرحلة كانت قد قامت بها مع لويزيتو، قبل أن تتزوج بعام واحد.

كانتا قد ذهبتا لقضاء أسبوع على جبال الدولميتي. كان الجو جميلًا طوال الوقت، واستفادتا بأن خرجتا في رحلات استكشافية طويلة. كانت لويزيتو تبدو كأنها لا تتعب مطلقًا، وبمجرد أن يصلا إلى بستان ما، كانت تستلقي لمدة خمس دقائق ثم تنهض على الفور، يملؤها النشاط.

وكانت تحثها قائلة: سيكون من الجميل أن نرى ماذا يوجد هناك بعيد، أليس كذلك؟

ماذا وراء ذلك الإسطبل، أو وراء تلك الخطوة، ترى ماذا يوجد خلف قمة تلك الصخرة؟ وماذا سيحدث لنا في غدنا؟

كم كانتا مختلفتين في الطباع!

بداخل لويزيتو كان يوجد شيء كالحمى يقودها لتذهب وراء الأشياء، ولتسأل نفسها، وألا ترضى مطلقًا بأول إجابة، وبالمظاهر. كانت تريد أن تصل إلى قلب الأشياء ولم تكُن تشعر قط بالسلام حتى تنجح في ذلك.

أما أنسيلما، فقد كانت طفلة هادئة، مطيعة، نموذجًا يُحتذى به لدى كل الأمهات. لم تخطر ببالها قط فكرة أن هناك حدًّا ما، وأنه يمكن تخطي هذا الحد. ربما لهذا السبب جذبتها لويزيتو. بالنسبة إليها كانت ساحرة، جنية تستطيع أن تجرها بعصا سحرية إلى عوالم مختلفة، لا يمكن أن تتخيلها، في أفق أفكارها الصغير، وكانت سعيدة بذلك.

في إحدى المرات آسرت إليها: آترين، عندما آكون معكِ، يكون الأمر بالنسبة إليَّ تقريبًا مثلما يجد المرء نفسه أمام لوحة ذات أبعاد متعددة، أنا أستطيع أن أرى فقط الأشكال الموجودة في المستوى الأول، بينما تساعديننني أنتِ على ملاحظة الزهرة الصغيرة الزرقاء على الجبل الأبعد.

عندما تفكر مرة أخرى في كل ذلك، فإن كل الأشياء التي حدثت في حياتها وكُتب لها الاستمرار، كانت تدين بها لصداقتها مع لويزيتو. الموسيقى، حب الشعر، حبها للروايات، أن تتخذ التدريس كرسالة. في رأي لويزيتو، لا يجب أن نستسلم مطلقًا لوسائل الراحة، لأنها تعمل عمل الشراب السحري، يقبلها المرء فتشل حركته، تعتقد أنك ما زلت على قيد الحياة ولكن الحقيقة أنك صرت بالفعل مومياء.

من يدري إذا كان عطشها ذلك للحياة هو ما تسبب في نهايتها المبكرة؟ أو إذا كان العيش في حالة التوتر المستمر للاكتشاف، ذلك الاستهلاك الذاتي هو ما أدى بها لأن تنتهي بين ذراعي المرض؟ أو ربما أدى ذلك إلى تعجل الموت؟ -وكانت المرة الأولى التي تفكر فيها في ذلك- بأنها ساهمت هي أيضًا في ذلك بخيانتها لصداقتهما.

في الواقع لم يكُن الأمر يتعلق بخيانة مشاعر الحب ولكن فقط من حيث بُعد المسافة الذي تسببت فيه حياتها الزوجية. دعتها لويزيتو بضع مرات لتقضي معها يوم الأحد، ولكن أنسيلما لم تستطع قط أن تنظم نفسها، ربما لأن جانكارلو، نظرًا إلى أنه لم يتعرف عليها قط، كان يتضايق من مجرد سماع اسمها.

- لويزيتو، لويزيتو. ما يمكن أن يكون الشيء الخاص الذي تتميز به تلك المطوِّبة لويزيتو!

الآن تعرف ما حدث. لقد كان زوجها هو من حوَّلها عامًا بعد الآخر إلى مومياء، مستغلًا ميلها الطبيعي إلى ألا تنظر فيما وراء الأمور، مقتنعة بأن التضحية والصبر يمكنهما أن يبنيا شيئًا جميلًا ومستمرًا، ولم تدرك قصر الكذب الذي أقامه هو حولهما.

إذا كان لا بد أن تحفر على الشاهد الرخامي اليوم الذي بدأت تموت فيه وهي على قيد الحياة، لاختارت تاريخ تلك الزيارة للسيد نينو، التي كشفت لها عن حقيقة إصابة قدمه. كان هناك فارق شاسع بين الأداء الشجاع في حرب وسقطة سكير من فوق دراجته النارية!

ولكن حدثت الصدمة الحاسمة لها في بدايات السبعينيات، بينما كانت تستعد للانتقال إلى روما، وبينما هي تحرك الخزانة لتستعيد شيئًا سقط خلفها، عثرت بالمصادفة على كتيب غريب: *هكذا تفوز بها*، كان المكتوب على الغلاف المزين بريشة إوزة ووردة حمراء. فتحته وبداخله وجدت كل، كلها بالفعل، الأشعار الموجودة في الكشكول الصغير، الذي قدمه لها جانكارلو يوم الزفاف في تفخيم درامي. كانت جميعها منقولة من أولها إلى آخرها، من دون حتى بذل أي مجهود وتغيير ترتيبها.

في ذلك اليوم كان يمكنها أن تعبِّر عن رد فعلها بطريقة ما -تترك المنزل، أو ربما كان بإمكانها أن تطرده- ولكن كيف ستتمكن عندئذٍ من تبرير تصرفها أمام القانون، أمام العيون المندهشة للأقارب، أمام ألم ابنيها؟ سأترك المنزل لأنه أهداني أشعارًا منقولة وتظاهر أنها له؟ كانوا سيلقون بها على الفور في مصحة للأمراض العقلية.

في نظر الجميع، كان جانكارلو زوجًا صالحًا. كان يعمل بكد ليحسِّن من الظروف الاقتصادية للعائلة، ولم يجعلها تفتقد شيئًا لا هي ولا ابنه وابنته، كانوا يذهبون في إجازة إلى البحر وإلى الجبل، لم يكُن عنيفًا وكان يربي ابنيه كما كان يمكن لقليل من الآباء أن يفعلوا الآن. كان رجلًا مملًا -وفي كل مرة كانت تحاول هي أن تقترح شيئًا جديدًا أو مختلفًا، كان ينظر إليها بشفقة قائلًا: إن لديكِ خيالًا مريضًا- ولكن، كانت إحدى صديقاتها تقول لها: وهل تعرفين رجلًا ليس مملًا؟

ولم يكُن أيضًا زير نساء. فقط في سن الخامسة والستين كانت لديه عشيقة شابة في أوروبا الشرقية، بدد عليها كثيرًا من النقود، ولكن يحدث لأغلب الرجال أن يحوموا حول الصبايا بينما تشيخ زوجاتهن. بعد موته، وجدت في قاع أحد الأدراج نسخًا طبق الأصل بالكربون، لكل الخطابات التي كتبها للفتاة. لا بد أنه قد غيَّر الكتيب، أو ربما كان هذا من نتاج قريحته بالفعل، لأنه في تلك الخطابات الخالية من العذوبة والمبالغ في نثرها الرومانسي، لم يكُن يفعل سوى الشكوى من معاناته الزوجية مع تلك المرأة الباردة والحادة التي يعيش معها منذ ثلاثين عامًا كعبد. كتب في ختام أحد خطاباته الأخيرة: معكِ سيكون كل شيء مختلفًا، فأنتِ مثل الشمس التي تشرق مع كل فجر، مليئة بالأمل، وستضيء أشعتكِ السحرية حياتي.

أخذت أنسيلما تلك الحزمة من الخطابات وذهبت إلى المطبخ مع زجاجة صغيرة من الكحول. وبينما كان الورق يحترق في حوض المطبخ، شعرت تقريبًا بالشفقة عليه، كل ذلك التظاهر بالعواطف ليحصل فقط على لحم بض. وفكرت "متسول الانتصابات"، بينما كانت دفعة من المياه تُسقط الآثار الأخيرة للمحرقة الصغيرة في المصرف.

من يدري إذا كانت لويزيتو، من مكان ما في عالمها، لديها القدرة لتراها، وإذا كانت قد شهدت الانحدار البطيء لحياتها، لذلك التحول من امرأة شابة مليئة بالحماس والحيوية إلى مومياء ملتفة بضمادات منقوعة في المر.

في تلك المرة فوق جبال الدولميتي كانتا قد توقفتا لتناول بعض الشطائر في ظلال صنوبرية ضخمة، أمام إحدى البحيرات، وبالقرب منهما كان يوجد بعض الأبقار ترعى، وبعيونها السوداء الكبيرة كانت تراقب لعب العجول الصغيرة وهي تناديها من حين لآخر بخوار خفيف، وكان رنين الأجراس الصغيرة يملأ الهواء. كانتا جالستين بين الجذور الضخمة والملتفة لشجرة اللاركس. كانت لويزيتو تتأمل السماء واضعةً يديها خلف رقبتها.

وفجأة سألتها بلا أي مقدمات: هل تفكرين أحيانًا في الرب؟

- أذهب إلى القداس يوم الأحد.

انفجرت لويزيتو في الضحك.

- لم أسألكِ إذا كنتِ تؤدين الفروض، سألتكِ إذا كنتِ تتساءلين عن غموضه. من هو؟ كيف هو؟ هل هو موجود بالفعل؟ أسأل نفسي هذا دائمًا، ولكن لا أجد دائمًا الإجابة نفسها. عندما أنظر إلى كل الشر الموجود في العالم، أفكر في أنه غير موجود. أي آب يمكنه أن يتسبب في عذاب أبنائه بهذه الطريقة؟ في إحدى المرات، في أثناء جنازة أحد تلاميذي في المدرسة، خرجت جريًا من القداس. كان تلميذًا نابغًا، يملؤه الفضول، ومات في ثلاثة شهور فقط جراء ورم في المخ. في الشهر الأخير لم يكُن يفعل شيئًا سوى الصراخ، وفي النهاية كان يبدو كأنه شادن جريح مختبئ بين العشب الطويل، لم يتبقَ سوى عينين كبيرتين قاتمتين فوق هيكل عظمي للقفص الصدري المعذب. كنت أريد أن أقلب كل المقاعد والدكك عندما أخذ القس، أمام الصندوق الصغير الأبيض، ينطق بكلمات العزاء المعتادة. ولتجنب الفضيحة، فضَّلت أن أخرج، وأخذت أسير وأسير. سرت طويلًا لساعات في محاولة لأن أهدأ. كنت أحرك يدَي، وأتحدث مع نفسي، أو الأفضل أن نقول كنت أتناقش معه. "ألم تحسبها جيدًا؟" كنت أصرخ: "ألا ترى ما حدث؟ كيف يمكن أن تصيب طفلًا، أن تدمر عائلة بأكملها؟ وماذا ستقول لي عن كل الأشرار الذين تزدهر حيواتهم؟ المستغلين، والمتوحشين، والكاذبين، الذين يموتون في فراشهم من الشيخوخة، تحيط بهم محبة عائلاتهم؟ ألا تراهم؟ ألا تسمع الأنين؟ أم أن قدرتك الكلية ليست سوى حدوتة خيالية مثل كل الحكايات الأخرى، وأنه لا فارق كبير بينك وبين الساحر مارلين.

لم تكُن أنسيلما قد فكرت قط أنه من الممكن النقاش مع الرب، بل لم يخطر على بالها قط أنه يمكن الشك في وجوده. كانت تعرف أن العالم غير عادل، ولكن كانت تعتبر ذلك أمرًا حتميًا. في الواقع كان الرب بالنسبة إليها صاحب فكرة، ومدير مصنع كبير، كان هو من بدأ المشروع ونظم الأقسام المختلفة، ومِن ثَمَّ كان لا بد أن يعرف بدقة طريقة التشغيل. كيف يمكن أن يتناقش أحد العاملين في فرع التركيب، أو ربما في فرع إرسال الطرود مع المدير العام؟

كانت تردد دائمًا لتلاميذها: لتشغيل العالم، من الضروري أن يؤدي كل واحد منا واجبه، بكل إخلاص ونظام. انظروا، على سبيل المثال، إلى النمل أو النحل، كل منها يعرف دوره جيدًا، ويطيعه إلى النهاية، وإذا لم يحدث هذا تتحول أعشاش النمل إلى فوضى، والمناحل ستتلاصق في نفسها، ولن تعود هناك زهور ولا فاكهة ولا نحل.

وكان رد فعل أنسيلما: لا أستطيع تخيل كيف يمكن أن يناقش أحد الرب.

- هل تعتقدين أنها خطية؟

- لا، أقصد نعم. في الحقيقة لا أعرف، ولكن هذا يخيفني بعض الشيء. إذا كان هو من خلق كل الأشياء، من الحشرات حتى النجوم- سيعرف جيدًا لماذا فعل كل هذا، أليس كذلك؟ ألسنا صغارًا جدًّا لنفهم هذا؟

صغار، أجل، ولكننا قادرون على طرح الأسئلة. إذا أرادنا أن نطيع فحسب، لكان خلقنا مثل النمل، إلا أننا نمتلك القدرة على التخيل، وبخلاف الحيوانات، يمكننا أن نثور على ما يحدث. إن نوعنا فقط هو القادر على تغيير ظروفه في أي لحظة من لحظات الحياة.

- أتعتقدين ذلك؟

- نعم أنا متأكدة! وإذا لم يكُن الأمر كذلك، سأقتل نفسي في هذه اللحظة نفسها.

اختتمت لويزيتو حديثها، وانفجرت في الضحك. كان من الواضح أنها لا يمكن أن تقتل نفسها لأي سبب في الحياة.

بدأ بعض الشظايا الذهبية يمطر فوق رأسيهما. رفعتا عيونهما ورأتا سنجابًا منهمكًا في مضغ ثمرة صنوبر، ولم يخف من وجودهما على الإطلاق.

أكملت لويزيتو: ربما تكونين على حق، لا نحتاج إلى أن نتساءل عن أشياء أكبر منا، لا بد أن نعيش مثل ذلك المخلوق الموجود هناك فوق، ونستمتع باللحظة. ولكن، إذا استطعنا عمل ذلك، لن يكون لدينا الفن، ولن يكون لدينا الشعر، ولن تكون لدينا الموسيقى. سنعيش مثل الآليين، بلا ذكريات، بلا أمل وبلا ندم ولاحسرة أو حتى حنين. لن يمس أي شيء قلوبنا، ولن يدفعنا شيء لنشعر بأننا أقل وحدة.

التفتت أنسيلما قليلًا: هل تتذكرين رحلتنا إلى مورانو؟

ابتسمت لويزيتو: ما الشعر؟

- تمامًا.

وبالقرب منهما كانت بقرة تُرضع عجلًا صغيرًا. كانا يقفان أحدهما بجوار الآخر، ويحركان ذيليهما ليبعدا الذباب. من حين لآخر كانت الأم تلعق بشفتيها ظهر الصغير، الذي يبدو كأنه قد وُلد منذ برهة، بالنظر إلى جلده الذي ما زال مجعدًا.

وفي الهواء الثابت للساعات الأكثر حرارة، كان يُسمع فقط تغريد طائر كسارة البندق، الذي يقطعه الصوت المنهك للرضيع الجائع.

وأسفل النظرة المسالمة، المضيئة والمليئة بالهدوء للأبقار، نعست آنسيلما. كانت القمم والغابات تنعكس على السطح اللامع للبحيرة، ولم تكُن الصديقتان سوى نقطتين أسفل عظمة شجرة اللاركس.

كانت الشمس قد اختفت بالفعل أسفل إحدى القمم عندما استيقظتا وهما ترتعشان من الانخفاض المفاجئ لدرجة الحرارة. تمطت لويزيتو وهي تبتسم: حلمت! حلمت أن جذور هذه الشجرة كانت ذراعي الرب، وأننا كنا مستلقيتين في حضنه بلا خوف، محتميتين من الرياح، وكانت هناك نسمة خفيفة تلفنا، وصوت، بدا كأنه يهمس لنا:"لا تخافا، فليست الظلال سوى شكل آخر من أشكال "النور".

9.

في صباح يوم الاثنين، بحثت أنسيلما في الدليل التجاري عن محل يبيع أدوات للصيد في الجوار. للأسف لم تجد أيًّا منها في منطقتها، وهكذا قررت أن تبتعد، لمرة، عن عاداتها وسمحت لنفسها برفاهية الاستعانة بسيارة أجرة.

وفي الثالثة والنصف، ميعاد فتح المتجر، كانت مستعدة للخروج. كانت ترتدي التايير الأزرق الكتاني (الذي يعود لفترة المدرسة) وعقدًا من خشب القرانيا، هدية من زميلاتها عندما تركت التدريس.

وقبل أن تخرج، جلست أمام لويزيتو وشرحت له أنها ستتأخر مدة أطول من المعتاد، لأنها لا بد أن تذهب للبحث عن شبك الصيد لتضعه على النوافذ، وبذلك يمكنه هو أن يطير ويمكنها هي، أخيرًا، أن تتنفس.

وبينما كانت على الهاتف تنتظر تأكيد السيارة الأجرة، طار لويزيتو فوق كتفها. "أتمنى أن تكون قد قضيت حاجتك" كانت على وشك أن تقول هذا، قلقة على التايير، ولكن كان هو يحاول أن يقول لها شيئًا ما: كن... كن... كنز.

حدقت فيه أنسيلما مندهشة: هل تعتقد أن بداخل الشبك سيكون هناك كنز؟

وكإجابة، اقترب لويزيتو بوجنته ولمس وجنتها: *أ... أ... أنسيلما كن... كنز.*

كان شراء ووضع الشبك أبسط بكثير مما تخيلته: عادت في السادسة، وفي الثامنة كان منزلها قد تحول إلى فرع من فروع مطعم شيسيناتيكو.

وبينما تحدق في الشبكة الأخيرة، بدا لها أنها ترى جارها الضابط المتقاعد وهو يتجسس عليها من خلف مصراعيه المغلقين دائمًا. قالت لنفسها: ذلك الشيخ البغيض، وهي تتساءل إذا كان هو يفكر في الشيء نفسه عنها أيضًا.

وفي المساء، على العشاء، كانت نشرة الأخبار تعلن عن حالات الطوارئ نفسها، والآن أُضيفت إليها أيضًا طوارئ المواصلات التي تشغل نصف الجذع المتخشب (على الشاشة) والتي -بطبيعة الحال- تصحبها أيضًا طوارئ سوء الأحوال الجوية. كانت تمطر بلا انقطاع على جزء كبير من السواحل، انخفضت الحرارة فجأة على الأقل عشر درجات، مما دفع كثيرين من المصطافين لقطع الإجازات فجأة ومِن ثَمَّ، ألقوا بأنفسهم على الطرق السريعة فأغلقوها.

نظرت أنسيلما إلى الخارج، لحسن الحظ هنا في روما كان الجو ما زال جميلًا، حتى إذا كان من النوافذ –المفتوحة أخيرًا- يصل بعض الهواء المنعش، الخريفي تقريبًا. وعند هبوب الرياح، بدأ الشبك المعلق يرقص في الهواء.

- ألا يبدو مثل شراع المركب؟

- *كراك*!

- هل تعرف لماذا وضعته؟ لأنني لا أريدك أن تخرج ويؤذيك شخص ما. أنا واثقة بأنك ستعود دائمًا إلى المنزل، ولكن هناك بالخارج يوجد أناس يحبون أن يطلقوا النيران، ويقذفون بالمقلاع، وذلك بالإضافة إلى الغربان والصقور والقطط. كيف سيمكنك الدفاع عن نفسك؟ أجل، أعلم هذا، شيء ممل المكوث دائمًا في المنزل، أفهمك. أتعرف ما يمكننا عمله يومًا ما؟ يمكننا الذهاب في رحلة بحرية جميلة! يمكننا الإبحار من جنوة لنذهب حتى جزر الكناري، من سيمنعنا؟ ثم، حسب معلوماتي، فأنتم البغاوات تحبون البحر، أليس كذلك؟

في ذلك المساء، بعد العشاء، استمعا إلى بعض أغاني نابولي.

لنمكث هكذا

نفسًا وقلبًا

لن يترك أحدنا الآخر

ولو لساعة

رغبتك هذه تصيبني بالخوف

سأعيش معك

دائمًا معك

حتى لا أموت![7]

كانت أنسيلما تغني ولويزيتو يرفرف، ويطير بسرعة من شماعة الملابس في المدخل إلى مصباح مورانو ثم يعود.

وفي لحظات التجلي العظمى كان يُسمع صوت دق الجار على الجدار.

نصحته أنسيلما بفرح: لماذا لا ترقص قليلًا أنت أيضًا؟

وفي منتصف الليل، لم تكُن تشعر بالنعاس بعد، كانت تشعر بأنها متوترة بفرح، تقريبًا مشتعلة بالطاقة.

وفي ملابس نومها بالفعل، ذهبت نحو الخزانة وأخذت منها صندوقًا قديمًا للكحول، كانت تحتفظ فيه بخطابات تلاميذها القدامى.

الجزء الأكبر منها كان يعود إلى فترة التدريس في الجبل، وكان لون الورق قد تحول إلى الأصفر وحبر الكتابة تقريبًا قد تلاشى. قرأت بعضًا منها، كانت النبرة مليئة بالاحترام، رسمية، ولكن بتذكُّرها وجه كل واحد منهم، استطاعت أنسيلما أن تتعرف على المشاعر الدافئة والامتنان العميق، خلف ذلك الجمود الظاهري.

كان بعض تلك الخطابات يبدأ ويتنوع كما يلي: *المعلمة العزيزة الكريمة*، *المعلمة العزيزة المحترمة*، أو *المعلمة العزيزة المُبجلة*، وصولًا إلى الأكثر شجاعة: *المعلمة العزيزة التي لا تُنسى*.

كان الجميع بلا استثناء يشكرونها على ما تعلموه، وهم يؤكدون لها أنهم لن ينسوها قط، ثم كانوا يخبرونها بآخر الأخبار التي طرأت على الأحداث المتنوعة في حياتهم: أخبار الزواج، والمواليد، احتفالات المناولة، التخرج، الانتقال إلى مكان آخر. ومن الصور التي كانوا يرسلونها مع خطاباتهم كانت ترى باندهاش التغييرات التي حدثت لوجوههم. البعض منهم ظلوا تمامًا كما كانوا في طفولتهم، بينما البعض الآخر لم تكُن ستستطيع أن تعرفهم ولا حتى إن قدموا لها بطاقة إثبات الهوية. عثرت على كثير من المراسلات التي تعود إلى تلك الفترة التي قضتها في "نوالى"، وهي ما زالت زوجة شابة، بينما عن أعوام تدريسها في روما لم تجد أي أثر.

إذا كان في الإمكان أن يصنع المرء ترتيبًا طبقيًّا، مثل ذلك الذي يقوم به علماء الجيولوجيا، سيجد نفسه يتأمل في سُمك الرواسب التي من خلالها يمكنه فهم التطور الحادث في مشاعر وتعليم الآدميين.

وقبل أن تتدثر أسفل الأغطية بحثت عن صورة قديمة لها كطفلة، وعثرت على واحدة صغيرة، بالأبيض والأسود، بحواف متآكلة. كانت حافية، يداها في جيبيها وكانت تضحك بأسنانها اللبنية لآلة التصوير، دون أن تُظهر أي خوف من الأوزات الثلاث الضخمة البيضاء التي كانت تحيط بها مهددة.

لم تكُن لديها الشجاعة لتنظر في المرآة. ماذا عن وجهها الآن، إلى أي شيء قد تحول؟ إلى أي قناع؟ هل ستنزل إلى قبرها مرتدية ذلك القناع، وهل هناك دائمًا، وفي أي لحظة -كما

كانت تقول لويزيتو- إمكانية التغير؟ ألم تنزلق هي أيضًا في هاوية عدم الامتنان؟

عندما ذهب لويزيتو ليمنحها قبلة تحية النوم -عضة خفيفة على شحمة أذنها- ضمته برقة إليها:

- أتعرف الحقيقة؟ إنني خائفة جدًا من أن أفقدك. أنت، أنت كنت بالفعل... -وهنا بدأ صوتها يُبح- إنك في حقيقة الأمر بصيص صغير من قوس قزح، ففرحك طرد حزن أيامي.

ولم تستطع أن تمنع دموعها من أن تبلل الريش، المضاد للمياه، للببغاء، ومن هناك، مثل الإزمرلد، وصلت إلى الوسادة.

وقبل حتى أن تفتح عينيها، شعرت أنسيلما بشكل جديد من الطاقة يجتاحها. فردت ذراعيها وقدميها، وهي تتمطى فرحة، وقررت أن تنظم حفلًا. في سنوات الزواج لم تنجح في أن تكوِّن أية صداقات، وعندما أصبحت أرملة، حبستها المرارة في قبضة من الفولاذ.

ولكن، لكي تنظم حفلة، لا بد أن يكون هناك مدعوون، وهكذا قررت أن تذهب لتبحث عن زميلاتها القدامى في المدرسة. وفي ساعة الغداء، وبفضل دليل التليفونات، استطاعت أن تتصل بجزء كبير من المعلمات اللاتي ما زلن على قيد الحياة. كانت المكالمات الأولى غريبة: ترى هل يتذكرنها حتى الآن؟ وهل هي ذكرى إيجابية؟ كيف يمكنها أن تفسر لهن أسباب الحفل الذي أطلقت عليه اسم "الرقصة العظمى لإجازة أغسطس"؟

لحسن حظها، كانت كل الزميلات تقريبًا ما زلن في المدينة، والجزء الأكبر منهن كن في وضعها نفسه: ذهب الأبناء والأحفاد بعيدًا في الإجازة وظلت هي بمفردها في المدينة. فقط اثنتان منهما، السيدتان نوسيدا وريكاردي، تبعتا عائلاتهما إلى الريف. جميعهن تقريبًا أصبحن أرامل: جوزيبينا، الألطف بينهن، كانت تعيش منذ أعوام في أحد مقار الأعوام الفضية، حيث أصيبت بمرض ألزايمر.

وبعد الدهشة المبدئية من سماعها، استقبلن جميعًا بحماس فكرة الحفل، وتسابقن على عرض المساعدة فيما يتعلق بالطعام. بل صرحت لها السيدة سكاكاباروتزي "لقد كنتِ أنتِ دائمًا بطلتنا"، وتركتها مضطربة بسعادة.

في اليوم السابق للحفل –الذي كان يوم الأربعاء- تحركت في ساعة مبكرة، كانت ترغب في أن تجعل المنزل فرحًا بالفعل. كانت الأولى تقريبًا في أخذ عربة التسوق في مركز التسوق، وتقريبًا كانت الأولى أيضًا في صف الخزانة. كانت قد ابتاعت كل المطلوب: الطعام والمشروبات، الزينة والمصابيح الصينية الورقية.

في الظهيرة خبزت عديدًا من الفطائر الهشة والبيتزا بأحجام صغيرة، وبعض الطعام المالح، بدأت في إعداد البسكويت، وأخيرًا صينية حلوى "التيراميسو".

وقبل أن تذهب للنوم، كتبت بالأقلام الملونة الضخمة على لوحة كبيرة لتعلقها على المدخل: *مرحبًا بكن! الحياة تبدأ بعد سن السبعين!*

في المساء كانت منفعلة جدًّا، فلم تستطع النوم. هكذا تناولت قرصين فاليريان[8]، كانت تريد أن تكون في أحسن حال في اليوم التالي. كانت تشعر بالسعادة بطبيعة الحال، ولكن في أعماق تلك السعادة كان يوجد أيضًا الخوف السري من أن شيئًا ما يمكن ألا يسير على ما يرام.

ويوم الأربعاء، بعد الإفطار، علقت (بمساعدة لويزيتو) المصابيح الصغيرة والزينة، وأعدت الصواني عليها كوكتيل الزنجبيل وعصير الفاكهة، والأطباق الصغيرة وبها الزيتون والبطاطس المحمرة، والفستق والبندق. وحدث أيضًا أول خلاف بينها وبين الببغاء: بمجرد أن انشغلت للحظة، هجم هو بمخالبه الخشنة على الفول السوداني، واضطرت إلى أن تصفعه صفعة خفيفة.

- لديك صحنك مليء بالطعام، لماذا يجب أن تسرق مني تلك؟ ثم انظر إلى ما تسببت فيه من اتساخ بسبب القشر!

ولكن قبل الغداء بقليل تصالحا. مدت له أنسيلما يدها، وفي المحاولة الثالثة، هو أيضًا مد لها قدمه.

- من الطبيعي أن يتشاجر الأحباء، أتعرف هذا؟ فالحب لا يصبح جميلًا إذا لم تكُن فيه تلك الخلافات الصغيرة.

وبينما تضع اللمسات الأخيرة، فوجئت أنسيلما نفسها بالغناء. الآن قد قررت: في الخريف ستسجل في جامعة "الحقبة الثالثة Terza Età"، ستدرس الغناء وربما أيضًا لغة أجنبية.

في الساعة الثانية وصلت مصففة الشعر، من السلم الفرعي، وأحضرت معها مجفف الشعر المحمول، وصففت لها شعرها.

في الرابعة والنصف كانت مستعدة: ترتدي تاييرًا، وحذاءً بكعب مرتفع قليلًا، وعقدها المصنوع من القرانيا، وإسورة عيد زواجها الفضي، وضعت بعض مساحيق الوجه وقليلًا من عطر "شانيل" رقم 5، عطرها المفضل.

اللمسة الأخيرة كانت خاصة بآناقة لويزيتو، صنعت له رابطة على شكل الفراشة حول عنقه، من شريط حريري كان لديها في أحد الأدراج.

في الخامسة وعشر دقائق دق الجرس للمرة الأولى.

قالت في جهاز الاستقبال، وهي تشعر كأنها تلميذة صغيرة تحتفل بأول عيد ميلاد لها: الطابق الرابع.

كانت تتمنى أن يسير كل شيء بطريقة رائعة، ولكنها كانت تشعر بأنها فريسة لظل الحزن والفشل.

وإذا كن جميعًا مكتئبات؟

ماذا إذا لم تسر الحوارات بسلاسة؟

ماذا إذا سادت قائمة المرضى والأموات على كل شيء آخر؟

ولكن تبددت كل المخاوف بمجرد أن واجهتها الضحكة المعدية للسيدة سكاكاباروتزي، التي كانت تبرز بوضوح من ردائها الأحمر، وعبرت عتبة الشقة بباقة ورود في يدها.

وفي النهاية كان عددهن ثماني، وكانت هناك مفاجأة بالظهور المفاجئ للسيد روديني، المعلم الوحيد في المدرسة، الذي دعته واحدة منهن.

همست السيدة برونيتي في أذن أنسيلما، بينما يصعد المعلم مستخدمًا المصعد: أرجو ألا أكون أخطأت.

أجابتها أنسيلما بفرح: إطلاقًا، على الأقل سيكون معنا فارس!

وبدأت الثرثرة تتكاثف، وبدأت صحون الأطعمة في النفاد، ومعها أيضًا الأكواب.

ودخل لويزيتو دخول المنتصر وهو يطير محلقًا فوق رؤوس الضيوف، ومتسببًا في كثير من صرخات الفزع. ولكن عندما قصت أنسيلما كيف عثرت عليه، انفعل الجميع.

واعترفت، وهي تربت عليه برقة: وبسببه أدين بالفضل لرغبتي في إقامة هذه الحفلة.

ومن جهته تصرف لويزيتو بأدب جم، وهو يطير من ضيفة لأخرى مقدمًا لهن الطبق الصغير للزيتون في منقاره.

- يا له من بارع! هل علّمته أنتِ هذا؟

أشارت أنسيلما نافية: إنه يفعل كل شيء بمفرده، يعرف أيضًا كيف يتكلم، عندما يريد.

وفي السابعة فتحوا زجاجة الشمبانيا (والتقط لويزيتو وهو يطير الغطاء) وقال الجميع في جوقة، وهم يرفعون كؤوسهم إلى أعلى، وينظرون إليها: في صحة أنسيلما، بطلتنا!

ولم تكُن تتوقع هذا بالفعل، وتأثرت جدًّا.

وأكملت السيدة سكاكاباروتزي: أنتِ لا تعرفين كم من الأعوام تحدثنا عنكِ.

وأضافت السيدة بونومي، مدققة: أكثر من الحديث! كنا نستدعيكِ! من كل موقفين من ثلاثة كنا نقول لأنفسنا: هنا نحتاج إلى أنسيلما!

واستعدن معًا وهن جالسات الواحدة بجوار الأخرى، الحدث الشهير الذي قطع بقسوة تاريخ أنسيلما المهني كمعلمة الذي لم تشبه شائبة.

كان الأمر يعود إلى خمسة عشر عامًا، وكانت الأيام الأولى من شهر مايو. كان الهواء فاترًا، وتسبب الشعور باقتراب الإجازات بتوتر التلاميذ. كانت أنسيلما تدرس الجغرافيا في أحد فصول الصف الخامس، وبينما كانت تشرح ديناميكية الطبقات التكتونية، نهض أحد التلاميذ وهو يقلب عينيه، وبريشة كبيرة بين قدميه بدأ في التنفس بسرعة وهو يمثل جماعًا.

نهرته وهي تضرب بيدها المفتوحة على مكتبها: "فيريري، توقف!". ونظرًا إلى أنه استمر في أن يموج لسانه المدلى خارج فمه، دافعًا الجميع إلى الاستهزاء، رفعت أنسيلما صوتها قائلة:

- توقف أيها الأحمق!

فكانت إجابته: توقفي أنتِ، أيتها الغبية!

ودون أن تفكر مرتين، نزلت أنسيلما من منصة التدريس، وبكل الرضا عن النفس، صفعته بقوة على وجهه.

في الأيام والأسابيع التالية لهذا انفجرت فوضى حقيقية. قدم والدا التلميذ شكوى ضد أنسيلما بل وطالبا بتعويض مرتفع جدًّا للأضرار المستديمة التي حدثت لابنهما. جاء الصحفيون في وفود كبيرة، مثل أسماك القرش التي تجذبها رائحة الدماء، وملؤوا عشرات

الصفحات من الأخبار، وخصصت القنوات التليفزيونية حلقات كاملة لمناقشة الحادث الذي وقع في مدرسة هادئة من مدارس العاصمة.

وبعد حوالي ثلاثين عامًا من التكريس الكامل للتدريس، تحولت أنسيلما، المسالمة، إلى وحش، بل وإلى مريضة نفسية سادية -كما كتبت إحدى الصحف- "محاولة تشبث أخيرة بثقافة فاشية، تمنى الجميع بالفعل فناءها". يتحدثون عنها، وهي ابنة أحد أبطال المقاومة!

وبسبب الخجل مما حدث، رفضت جوليا وماسيميليانو الذهاب إلى المدرسة لمدة أسابيع، بينما كان جانكارلو يدور في المنزل ويردد بغضب: سنفلس في نهاية هذا الأمر، بسبب ما أصابكِ في عقلكِ!

استدعاها المدير التعليمي في أكثر من مناسبة، في البداية كان يتحدث بأدب، ثم بأسلوب أقل أدبًا، اقترح عليها (ثم في النهاية فرض عليها) أن تعتذر رسميًا، وأن تعترف بأنها فقدت صوابها بسبب الضغط، وبأنها فقدت أعصابها.

إلا أنها أظهرت صلابة شديدة: لقد كنت في كامل وعي، ومدركة تمامًا لما أفعله، وفعلت هذا وسأفعله مئات المرات الأخرى، لأنه بلا احترام، لا يمكن أن يوجد أي نوع من التعليم.

وبعد شهر استُبعدت من المدرسة، وفي شهر سبتمبر طلبت أن تُحال على المعاش المُبكر.

اعترفت السيدة كوادروتشي: لم تكُن لدينا قط شجاعتك، أنتِ لا تعرفين كم من المرات اضطررنا إلى أن نُلجم أيادينا وألسنتنا حتى لا نفقد وظيفتنا.

- إنه لشيء بشع رؤية إلى أي شيء تحولت المدرسة، نحن من كان لدينا الحظ للتدريس في الخمسينيات والستينيات.

ثم قالت السيدة بونومي، متأملة للوضع: ولكن هل تتحدثن فقط عن المدرسة؟ أليس هو الوضع أيضًا في المجتمع؟ ألا ترين إلى أي شيء قد تحول؟

ولكي لا يسقطن فريسة الحزن، حركن المقاعد وبدأن يرقصن، وهن يتحدين روديني، الذي كشف عن براعته في الرقص.

وفي العاشرة، بدأ جدار الصالون يرتعش أسفل الخبطات الغاضبة للجار: ما هذا! ماخور؟

ولترد عليه، رفعت أنسيلما صوتها: ضع أنت أيضًا حلتك السموكنج، وتعالَ لترقص معنا!

استمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل. وفي لحظة الوداع، حضنتها زميلاتها، وهن منهكات من التعب وممتلئات بالحماس.

- لقد كانت فكرتكِ رائعة بالفعل.

- لا بد أن نكررها مرة ثانية.

- لنبقَ على اتصال.

وردد لويزيتو، وهو ممسك بشماعة الملابس في المدخل: سلام، سلام.

أجاب الضيوف: سلام يا لويزيتو، إلى اللقاء.

- وداعًا أيها الببغاء الجميل.

وعندما أغلقت أنسيلما الباب خلفها، نظرت حولها: كان المنزل قد تحول إلى ساحة معركة حقيقية. قالت لنفسها: "هذا أفضل، هذا أفضل من الضريح السابق. ونظرًا إلى أنها كانت متعبة جدًّا لتعيد تنظيم المنزل، دخلت إلى حجرة نومها ولويزيتو فوق كتفها.

فقط عندما دقت أجراس الكنيسة الساعة التاسعة، عثرت أنسيلما على القوة لتستطيع النهوض. لم تسهر قط في حياتها إلى وقت متأخر (بالإضافة إلى الرقص والضحك) وكانت تشعر بأنها منهكة للغاية، ولكن فوق كل ذلك كانت تلوح نغمة فرحة. ونظرًا إلى أنه لا أحد كان يستعجلها، بدأت تنظيم المكان بكل هدوء. وإذا، في أسوأ الافتراضات، عاد ابناها، ستعترف بابتسامة: حسنًا، لقد أقمت حفلًا، ماذا في هذا؟

حتى لويزيتو كان يبدو متأثرًا بصخب الليلة السابقة: كان ما زال فوق المجثم وريشه منتفخ ورأسه مختفٍ أسفل جناحه.

بدأت أنسيلما تلقي بكل شيء في كيس كبير أسود: أكواب ورقية، أطباق، ورق، زينة مقطعة من الطيران المنفعل للببغاء. عندما امتلأ، سحبته حتى المصعد، ومن هناك وصلت إلى صناديق القمامة الكبيرة في الشارع.

وعندما فتحت الغطاء الكبير، فكرت في أنه قد مر فقط أسبوع واحد منذ أن عثرت على المخلوق المرتعب الذي أصبح فيما بعد ببغاءها لويزيتو الشجاع. كم من الأشياء تغيرت، يا للسعادة التي أحضرها إلى ذلك المنزل منقاره الغريب للبلياتشو!

كانت السيدة روندیني قد سألتها في الليلة السابقة: من أين ابتعتِه؟

- لم أبتعه، لقد منحته لي السماء كعطية.

في أثناء العودة إلى المنزل، أخذت رسائلها البريدية، كانت هناك فاتورة الهاتف، وكالعادة لم يكُن مطلوبًا فيها سوى نقود الاشتراك، حيث إنها لم تكُن تتصل بأحد قط- وكانت هناك مادتان إعلانيتان تعلنان عن عروض شهر سبتمبر في المراكز التجارية القريبة، وأخيرًا، كان هناك مظروف أبيض، لا يوجد عليه اسم المرسل ولا المُرسل إليه، وفتحته قبل أن تدخل المصعد. وبخط كبير، وحروف مقتطعة من بعض الصحف كان مكتوبًا: أيتها العجوز الشمطاء، ستكون نهايتكِ سيئة أنتِ ودجاجتكِ اللعينة.

سبب لها هذا السباب الاضطراب. دخلت إلى المنزل وقد تملكها الرعب، وهي تنادي بأعلى صوت على لويزيتو. كانت تتخيله ملقى على الأرض بالفعل، وجناحيه مفتوحين ويطلق أنفاسه الأخيرة المحتضرة من منقاره.

لحسن الحظ، سمعت على الفور الصوت المحبوب الحاد يصل إليها من المطبخ: أنس- يل- ما!

شكرت السماء، فلم يدخل أي شخص غريب، ولا أحد بخلاف حارس العقار، (الذي كان في إجازة) يملك نسخة من مفاتيحها.

مَن ذلك الذي يريد لهما الشر؟ تساءلت. ولم تحتج إلى مجهود كبير لتتخيل، أمام عينيها تجسد على الفور الوجه الممتلئ لكابتن ترومبيتي، جارها. بالتأكيد كان هو من جاءته فكرة تركيب ذلك الخطاب البشع. من يدري كم من الخطابات يكتب في لياليه الأرقة، ليعبِّر للجميع عن كراهيته الغامضة تجاه العالم.

حاولت أنسيلما أن تهدأ، وهي تردد أنه بين منزلهما ومنزله لا توجد أي وسيلة تواصل، ولن يمكنه بمقلاع أو ببندقية صيد أن يصوب تجاه نوافذها.

الأهم، في هذه الحالة، هو ألا يخرج لويزيتو، ولكن لهذا كانت قد وضعت بالفعل شبكًا للتأمين. إلا أنها ظلت تشعر بوطأة قلق عميق، وشيء يشبه توقع مأساة وشيكة.

وفي الظهيرة، تلقت بعض مكالمات الشكر من زميلاتها. وفي العاشرة ودقيقة اتصل ماسيميليانو ليسألها إذا كانت الأمطار هطلت أيضًا في روما، وليخبرها بأن الطفلين طريحا الفراش بسبب التهاب اللوز.

وقبل أن تأوي إلى الفراش بقليل، شعرت بثاني انفعال كبير لذلك اليوم.

في أثناء مرورها من الصالون رأت شيئًا مستديرًا وواضحًا يلمع في وسط المقعد المخملي. متشككة إذا كانت قطعة بينيه صغيرة بالماراسكينو، أو قطعة من العقد العاجي للسيدة

سكاكاباروتزي، وضعت نظارتها، وبمجرد أن رأت ماذا كان بالفعل اختنقت صرخة في حنجرتها.

كان الشيء الموضوع برقة هناك في الوسط هو بيضة، ولم تكُن بيضة دجاجة.

- لويزيتو!

صرخت بصوت متهدج.

ثم جرت: لويزيتو!

هبط الببغاء على الفور على كتفها.

- لويزيتو! هل فعلت أنت هذا!

- *كراك، كراك*!

أجابت لويزيتو بفخر، راقدة كالدجاجة على المقعد.

أخذ قلب أنسيلما يدق بسرعة شديدة.

قالت لها، وهي تحاول أن تهدئ انفعالها: حسنًا، في واقع الأمر، لقد فاجئتِني مفاجأة جميلة. ولكن أؤكد لكِ أن هذا لن يغير أي شيء بيننا، والمنزل كبير بما يكفي ليسع أيضًا ثلاثة.

وفي الليل نامت وهي متوترة. حلمت بمغارة أمام نهر. "هذه هي مياه التناسخ"، كان يردد صوت ما. وفجأة خرجت من ظلام المغارة عاصفة صارخة من الببغاوات، ولكن في واقع الأمر كانت خفافيش. ربما لم تكُن أيضًا خفافيش ولكن آدميين بأجنحة غشائية، لأنها استطاعت أن تتعرف بينهم على الوجه الكئيب وعليه الشاربين لكابتن ترومبيتي.

واستمر هذا النوم المضطرب حتى الفجر. وفي أثناء النوم، كان لديها الانطباع بأن أحدهم يدق باستمرار على الباب.

وأدركت أن هذا لم يكُن حلمًا فقط عندما أُضيفت إلى صوت الجرس ضربات قوية تسببت في ارتعاش الأرض.

من يمكنه أن يكون في هذه الساعة؟

وضعت روبها، وذهبت إلى المدخل، وبحرص، رفعت الغطاء من العين السرية. وعلى عتبة المنزل، وقد شوهت العدسة أشكالهم، كان يوجد ثلاثة رجال يرتدون الزي الرسمي. كان الأول يدق الجرس ويدق الباب وهو يصيح: افتحوا!

صرخت أنسيلما ردًا عليه: لقد أخطأتم العنوان، هنا لا يوجد سوى معلمة في سن المعاش.

- لقد وصلت إلينا إشارة، ومن الأفضل أن تفتحي.

حاولت أنسيلما الاعتراض: لقد أخطأتم، لا يوجد أي مجرمين هنا.

ولكن عندما سمعتهم ينطقون باسمها ولقبها وتاريخ ميلادها وعنوانها، اضطرت إلى الاستسلام وفتحت، وقررت أن توضح سوء التفاهم.

دخل الرجال الثلاثة، وذلك الذي رأته يدق الباب، والذي لا بد أن يكون الأعلى في المقام بينهم، سألها مرة أخرى إذا كانت هي أنسيلما ديل بين، واسم الزوجية سكاتولين، التي وُلدت في فوسالون. وعندما أكدت ذلك، طلبوا منها أن تُظهر لهم بطاقة إثبات الهوية.

شعرت أنسيلما بالارتياح. كل هذه الضوضاء من أجل لا شيء، فكرت وهي في طريقها إلى غرفة نومها، لتحضر بطاقة الهوية التي تستخدمها فقط لتسحب بها المعاش.

فحص الرجل بياناتها، وأعاد إليها البطاقة، وقال لها: حسنًا، الآن نريد أوراق الببغاء.

نظرت إليه أنسيلما مندهشة.

- أوراق لوزيتو؟ هل تقصد لويزيتو؟

- لويزيتو أم لوزيتو؟

كان يبدو الأمر معقدًا جدًّا محاولة شرح أحداث الساعات الأخيرة للحراس، وهكذا أكدت: لويزيتو. إنها أنثى، ولكن اسمها لويزيتو.

- من فضلك، نريد جواز سفر لويزيتو.

- حسنًا، في الواقع لقد فكرنا في الذهاب إلى الخارج. لقد أردنا أن نذهب في رحلة بحرية، ولكن فقط بعد سنتين، إذن أتخيل أنه ما زال هناك وقت لأفعل ذلك.

- هل تمزحين سيادتك أم لا تعرفين القانون؟

سألها بنفاد صبر الحارس الأصغر سنًا.

- بالتأكيد أعرفه. ولأذهب إلى الخارج يلزم جواز السفر، في الواقع كما كنت أقول...

ومن الباب المفتوح كانت تظهر لويزيتو على المقعد وهي راقدة على بيضتها.

قال رئيسهم: إنه ببغاء أمازوني ذو جبهة زرقاء.

واستأنف: سيدتي العزيزة، إن ببغاءكِ لويزيتو تأتي من غابات في جنوب أمريكا، وإذا لم تطلعيني على وثيقة تدل على مصدرها، سنكون مجبرين على أن نصادرها وأن نتهم سيادتكِ بالحيازة غير القانونية لطائر نادر.

واندفع الآخر: إذن، هل لديكِ أم لا هذه الوثيقة؟

بدا أن قلب أنسيلما بدأ يُنزع من مكانه. صرخت: "لقد عثرت عليه في صفيحة القمامة!" وذلك قبل أن تنفجر الجلبة. فعندما شعرت بالفزع من أحد الرجال الذي كان يتقدم نحوها ممسكًا كيسًا قاتم اللون في يده، قطعت لويزيتو رقادها وبدأت تطير في الحجرة، وأخذت أنسيلما تجري في محاولة لمساعدتها، وهي تدفع المقعد ذا العجل في طريق الخاطف، الذي تعثر، وحوَّل البيضة إلى عصيدة. حاولت بعد ذلك أن تخدش رئيسهم الذي أمسكها من رسغها، وركلته أكثر من مرة في قصبة قدمه، وأخذت تصرخ كالمجنونة عندما رأت الشبكة وهي تسقط فوق لويزيتو وعندما رأت صديقتها المحبوبة وهي تختفي داخل كيس من الخيش صارخةً باسمها.

كانت الذكرى الأخيرة لذلك الصباح هو ذلك النقيق اليائس الذي تعالى من بئر السلم، وصوت رجل يحذرها: إننا فقط، احترامًا لسنك، قررنا ألا نبلغ عنكِ بسبب مقاومتكِ لموظف حكومي.

.10

لم تكُن الأيام التالية سوى دوامة من الظلام. عثرت على القوة فقط لتتفل على باب جارها، وهي تردد أقصى عبارات السباب التي خطرت على ذهنها، ثم، وبمساعدة شريط كامل من المهدئات -للأسف القليل جدًّا الذي لا يؤدي إلى الموت- غطت في نوم طويل بلا أحلام.

وعندما عاد ابنها وابنتها من الإجازة وجداها غائبة وشاردة.

كانت تردد باستمرار أنهم سرقوا منها ببغاء اسمه لويزيتو، وبتحفظ، فكرا في أن يستدعيا صديقًا لهما يعمل كطبيب نفسي لاستشارته.

قال لهما الطبيب إن أقرب تشخيص محتمل أنها مصابة بجلطة خفيفة تسببت في نقص مؤقت للأكسجين في المخ، الذي ربما تسبب في إعادة بعض خيالات الطفولة، أو في أسوأ الحالات، تسبب ذلك في هذيان حقيقي وفعلي.

عندما أطلعتهما أنسيلما على علامة صفار البيضة في وسط المقعد، حاولا أن يطمئناها، واتفقا معها أنه كان شيئًا واضحًا، فالببغاوات تحب أن تصنع أعشاشها فوق المقاعد المخملية في الصالونات.

وبعد أسبوع، ظهر ماسيميليانو مع آنسة سريعة الحركة. كانت صديقته، حسب قوله، ولكن أدركت الأم على الفور أن الأمر يتعلق بجليسة، وطردتهما على الفور إلى الخارج وهي تصيح: اذهبا إلى الجحيم!

وفي الليل، كانت تتناول أقراصًا، وفي النهار كانت تتناول أقراصًا.

وفي لحظة من لحظات الوعي استشارت زوج السيدة بونومي المحامي الذي اقترح عليها: "لا بد أن ترفعي قضية، قضية انتهاك حقوق الإنسان، وأيضًا حقوق الحيوان، بطبيعة الحال، بالإضافة إلى الضرر البيولوجي. وعلى كل حال ستكونين بحاجة إلى محامٍ، لأن لديكِ بالفعل قضية قائمة".

مجرد فكرة وجود إمكانية القيام بإجراء قضائي كانت بالنسبة إليها نقطة تحول: لتحصل مرة أخرى على لويزيتو كانت على الاستعداد لخوض أي معركة. وهكذا، بمجرد أن قلَّت حدة الألم، ذهبت إلى شركة عقارات تبحث عن عقارات بملكية غير مجزأة، واستعلمت عن إمكانية بيع منزلها. العرض الذي قدموه لها كان أعلى بكثير من توقعاتها، وبهذا المبلغ الكبير يمكنها أن توكل أفضل محامٍ، وتكتب لكل الصحف، وتستدعي كل القنوات التليفزيونية. عادت أنسيلما المحاربة، تلك التي صفعت ذلك الصبي ولم تندم قط، للحياة من جديد.

وفي لحظة اندماجها في تلك الروح المحاربة بالتحديد، وصل إليها خطاب من "مركز حماية الحيوانات البرية". وعلى هذه الورقة وصلت إليها معلومة، بلغة بيروقراطية باردة، أنه يمكن الذهاب إلى زيارة الحيوانات، التي صودرت، مرة في الشهر.

كان المركز يقع في وسط منطقة الأبنيني، وفي اليوم التالي كانت أنسيلما تحمل في يدها تذكرة القطار.

كان لا بد أن تترك القطار في بولونيا وتركب آخر يعمل بالديزل بلون القهوة باللبن الذي يعود زمنه -على الأقل- لشبابها.

بالإضافة إلى حقيبة واحدة تحتوي على الضروري لقضاء ليلتها، كانت قد أحضرت معها كيسًا يحتوي على كل الأطعمة المفضلة للويزيتو.

كانت في نهاية سبتمبر ولكن كان الجو ما زال صيفًا. وبينما القطار يشق طريقه وسط الجبل، لاحظت أنسيلما احمرارًا على أوراق أشجار القبقب، بينما قشور ثمار الكستناء منتفخة وأشواكها نافرة، مستعدة تقريبًا للحصاد.

كم من المرات رسمت نماذج لها! كان الأطفال يندهشون وهم يرون السهولة التي كانت تتمكن بها من أن تبدع بالطباشير الملون الفواكه والأزهار والأشجار على السبورة. بعد ثمار الكستناء كانت عادةً ما تنتقل إلى عنقود العنب: "ثمار العنب"، و"البراعم"، و"الأوراق"، هكذا كانت تكتب أمام كل جزء. وعندما يكون موسم الكرز، كان هناك نوع من الحماس يعم الجو، لاقتراب الصيف واقتراب نهاية العام الدراسي معه.

وصلت إلى البلدة في ساعة الغداء، وكانت الراكبة الوحيدة التي تركت القطار فيها. في كافيتريا المحطة لم يكُن هناك سوى بعض الخبز الجاف الذي ربما كان يرقد في ورق السوليفان منذ عدة أسابيع، وهكذا جلست على أحد المقاعد، في الظل، لتأكل المقرمشات التي كانت قد أحضرتها معها تحسبًا.

لم تجد أي سيارة أجرة في طريق الخروج، وكان يبدو أنه لا فائدة من انتظار أي منها. كان هناك طريق واحد، سارت فيه أنسيلما وهي مقتنعة بأنها إن آجلاً أم عاجلًا ستعثر على علامة ما.

وبعد مسيرة كيلومتر، بالفعل، كانت هناك لافتة ممزقة تشير إلى اليسار: مركز حماية الحيوانات البرية 500 متر.

كان المركز مكونًا من مجموعة من المباني المنخفضة، جاهزة الصنع، مغلقة على شكل حدوة حول ممر تحميه بوابة، أمامها كانت تنام أربعة أو خمسة كلاب تبدو حزينة. لم تكُن

هناك آجراس وكان الباب مواربًا. دفعته آنسيلما ودخلت.

كان هناك شاب يرتدي زيًّا رسميًّا ويقرأ مجلة سيارات وآلات، ممدًا على أريكة بالية.

تقدمت أنسيلما بأدب وشرحت سبب زيارتها.

قال الشاب، دون أن يرفع عينيه عن السيارات اللامعة: عودي في الساعة الرابعة.

لم تتحرك أنسيلما، قالت إنها جاءت من روما في رحلة طويلة، وإنها مسنة، وتعاني من أمراض السكري والقلب، وأعطت بالفعل أمرًا لابنيها، كليهما يعملان بالمحاماة، بأن يرفعا قضية من أجلها.

وفي اللحظة نفسها، دخلت امرأة شابة ترتدي زيًّا، مغطاة بمريلة طويلة صفراء، أسفلها يبرز حذاءان ذوا رقبة من المطاط. قال لها الشاب: خذيها إلى عنبر خمسة، وهو يتنهد، ويعود من جديد ليغرق في قصصه الخاصة بالسيارات.

ابتسمت لها الحارسة، وتقدمتها لترشدها. عبرا ممرًا محاطًا بأقفاص كبيرة، لمحت فيها أنسيلما نمرًا أسود ودبًّا رضيعًا. من يدري إذا كانا أيضًا قد عُثر عليهما في منزل ما.

ثم مرا على مبنى جاهز الصنع مليء بالزواحف حيث تسعى أفاعٍ من كل الأحجام والألوان مهددة وهي تُخرج ألسنتها بسرعة. بعضها كان بجوارها فأر يرتعش كالورقة، وأخريات، يتضح من انتفاخ أجسادها أنها أكلت بالفعل. أبعدت أنسيلما نظراتها عنها لما شعرت به من اضطراب. ورأت أيضًا السلاحف في أحواض كبيرة للمياه، بجوار أوانٍ زجاجية توجد بها عناكب مغطاة بالشعر ومرعبة.

سألت المرأة: هل سيادتكِ من تعتنين بهذا؟

- أجل عندما تكون نوبتي.

- ألا تحلمين بها ليلًا؟

أجابت وهي تضحك: بلى، يحدث هذا أحيانًا.

وأخيرًا وصلتا إلى العنبر خمسة، وربما كان الباب غير متوازن، فقد وجدت صعوبة لتفتحه. وبمجرد أن دخلتا، هاجمتهما رائحة فضلات حادة.

كانت الطيور كلها من الجوارح، تقريبًا ثلاثين منها، كان يوجد نسر، بومتان وبومة بيضاء، وصقور من كل الأحجام، وطائر اللقلاق بساقه الرفيعة، وطوقان ثم عدد كبير من

البغاوات، بعض منها في قفص والبعض الآخر على مجثم. كان هناك من يرفرف جناحيه ليجذب الانتباه، ومن يقف هادئًا، هادئًا أكثر مما ينبغي.

كانت عينا أنسيلما تجري بسرعة من الواحد للآخر.

صرخت، قبل حتى أن تشير لها مرافقتها: لويزيتو!

كانت لويزيتو المسكينة، أو ما تبقى منها، تقف على مجثم بالقرب من الجدار. كانت تضم إحدى قدميها، ولم يتبقَ من ريشها الرائع سوى آثار ضئيلة، كانت رقبتها عارية مثل رقبة النسر، وباقي جسمها لم يكُن في حال أفضل، فقط الجناحين والذيل كانوا ما زالوا يحتفظون ببعض الكرامة. كانت تبدو كدجاجة منزوعة الريش وليس كببغاء، مُعدة لأن تُغرس في السيخ.

وعندما رأت أنسيلما، لم يصدر عنها سوى "*كراك*" ضعيفة جدًّا.

صرخت أنسيلما: ماذا فعلتم بها؟

هزت الحارسة رأسها، بحزن.

- لقد فعلت هي كل شيء بمفردها. هذا يحدث لكل البغاوات، عندما تصل إلى هنا، تبدأ بنزع ريشها وتظل عارية.

دمدمت أنسيلما: لأنها تشعر باليأس.

علقت مرافقتها بابتسامة عاجزة: من يدري.

وبقلب يعصره الألم، أخرجت أنسيلما من حقيبتها بعض البندق وقطعة موز وتفاح، وقرَّبتها منها، ولكن لويزيتو لم تُبدِ أي اهتمام، رفعتها بساقها ثم تركتها لتسقط أرضًا.

همست لها بعذوبة في الثقب الصغير الذي لا بد أن يكون أذنها: لويزيتو، كنزي.

أجابها البغاء بعضات صغيرة ودود لأصبعها.

رددت أنسيلما: كنزي.

أصدرت لويزيتو صوتًا يشبه التنهد وبصوت ضعيف نعقت: *شك- رًا*.

عندئذٍ أدركت أنسيلما أن ذلك كان وداعًا وأن لويزيتو تحتضر.

اعترضت: إن ببغائي في حالة سيئة.

- لا تقلقي، إن الأطباء البيطريين يعتنون به، ولديهم أمل أن يشفوه.

صرخت أنسيلما فريسة لغضب مؤلم: إن العلاج الوحيد هو الحب. الحب فقط يشفي!

نظرت إليها المرأة، وهي ترفع كتفيها محرجة، كأنها تقول: أعلم هذا، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟

في تلك اللحظة دخلت إلى الصالة طفلة تمسك بكشكول في يدها، وشعرها الأحمر يبدو متمردًا على محاولات تصفيفه.

- ابنتي ناعومي. ثم بررت وجودها، اليوم إجازة من المدرسة ولم يكُن لدي مكان لأتركها فيه.

- ماما، حفظت قصيدة الشعر، هل تريدين أن أتلوها عليكِ؟

- ألا ترين أنني أعمل؟

- والآن ماذا أفعل؟

- لا أعرف، ارسمي، انسخي بعض الحيوانات، والأهم توقفي عن إزعاجي.

سمعت أنسيلما صوتيهما الهامسين، وكانت عيناها مليئتين بالدموع. ضمت لنفسها ما تبقى من صديقتها لويزيتو. كانت خفيفة جدًّا وتقريبًا باردة. "*كروك كروك*" قالت لها في أذنها، وكانت أنسيلما واثقة أن هذه هي كلمات الوداع.

"*كروك، كروك*" أجابتها دون أن تهتم بأن تمنع دموعها "*كروك كروك* يا كنزي"، قالت وهي تضع طرف السبابة على القفص الصدري، في المكان الذي فيه، كانت دقات القلب تزداد ضعفًا.

تمتمت مرة أخرى "وداعًا يا كنزي"، ثم خرجت مسرعة، دون أن تلتفت خلفها.

وكما يتصادم تيار النهر عند المصب مع تيار البحر، هكذا في قلبها الممزق كان الغضب والألم يتصادمان. جزء ما منها كان يرغب في عمل شيء عنيف جدًّا، ولكن الجزء الثاني كان يعرف أن ذلك لن يكون له أي فائدة، بل وربما يكون مضرًّا أيضًا.

الآن لن يفيد المحامون ولا الأطباء البيطريون في شيء لأن لويزيتو قد استسلمت. هذا الانفصال العنيف قد مزق فيها شيئًا ما، لم يعد من الممكن إصلاحه.

خلال بضعة أيام لن تتبقى سوى كومة صغيرة خامدة من الجلد والعظم، مُعدة للمحرقة.

في ذلك الوقت، في الخارج، بدأت عاصفة، كانت المياه تُغرق الأرض في طلقات عنيفة، ومن الغابة القريبة بدأت تتصاعد بالفعل رائحة الطمي المبلل للخريف. كانت السماء تمزقها بروق ورعود مستمرة، وهكذا قررت أنسيلما أن تجلس على أريكة صغيرة محمية، أمام مدخل المركز، وأن تنتظر نهاية العاصفة. لجأت أيضًا نعومي، الطفلة ذات الشعر الأحمر لهناك، وكانت جالسة ترسم في دفتر كبير.

لم تستطع أنسيلما، التي كان يهزها النحيب، أن تخفي يأسها. كان ألمها أكبر بكثير من الإحراج.

سألتها الطفلة: هل ترغبين في الاستماع لقصيدة شعر؟

ردت أنسيلما بغضب: أكره الشعر.

حدقت فيها الطفلة بعينين واسعتين فاتحتين.

- لماذا أنتِ تعيسة هكذا؟

بدلًا من أن تجيبها، تمخطت أنسيلما بصخب.

استمرت الطفلة: هل بسبب ببغاءكِ؟ ذلك الموجود هناك بالداخل؟

أومأت أنسيلما بالإيجاب.

- نعم، من أجل لويزيتو.

- لكنه لم يمت بعد.

لا، ولكنه سيموت قريبًا جدًّا، وأنا لن أستطيع تحمُّل هذا الألم. لقد كانت حياتي حزينة، ثم أتت هي... هل تعرفين، إنها أنثى، لقد اكتشفت هذا فيما بعد، ولكنني كنت قد أطلقت عليها هذا الاسم بالفعل... كانت كشعاع الضوء الصغير الذي بعث الدفء إلى قلبي... لقد منحتني فرحة الحياة مرة أخرى.

- ولماذا لا تأخذينها معكِ إلى المنزل؟

- إنه الشيء الوحيد الذي أتمنى القيام به، ولكنني لا أستطيع. في عالم الكبار القانون أكثر أهمية من الحب.

- إن أمي هي من تعتني بها، أليس كذلك؟

ابتسمت لها أنسيلما بين دموعها، وهي تومئ موافقة.

فجأة، توقفت الأمطار، وبسرعة كما أتت السحب، ابتعدت، وعادت الشمس لتتلألأ على العشب وفوق الغابات المبللة، وتصاعدت الأبخرة من الطمي والأسفلت.

صاحت الطفلة: انظري هناك! قوس قزح! تمامًا مثل ذلك الذي كنت أرسمه الآن، إنه الشيء المفضل لي! قوس قزح!

مسحت أنسيلما عينيها بمنديل صغير. بالفعل، أمامهما ظهر قوس قزح شديد اللمعان: كانت خطوط ألوانه تعبر السماء من ناحية إلى أخرى، بارزة فوق ظلال السحب.

شعرت أنسيلما باليد الصغيرة للطفلة تبحث عن يدها، كانت باردة ورقيقة، وفي الوقت نفسه، مليئة بالحيوية.

- هل تعرفين أن قوس قزح به سحر؟ إذا أغمضتِ عينيكِ وعبَّرتِ عن أمنية، ستتحقق تلك الأمنية. إذا فعلنا ذلك معًا، وكانت أمنيتنا واحدة، ستزيد فرص تحققها.

للحظة، أطاعت أنسيلما، المعلمة المسنة، التي لم تستطع قط أن تحبط أحلام الصغار، لعبة ناعومي، وأغمضت عينيها.

قالت: أنا مستعدة.

- عندما أقول ثلاثة، نعبِّر معًا عن تلك الرغبة. بكل قلبينا. واحد، اثنان، ثلاثة!

وعند رقم ثلاثة، شعرت أنسيلما بالأصابع الصغيرة وهي تضغط على أصابعها. وبالقرب منهما، كان طائر نقار الخشب، ينقر جذع شجرة بمنقاره: *تاك، تاك، تاك*.

- تمنيتِ؟ سألتها بصوت رنان.

- تمنيت! أجابت أنسيلما.

- إذن يمكننا أن نفتح عيوننا من جديد.

تمطت ناعومي كأنها استيقظت للتو من نوم عميق. لم تحتج أنسيلما إلى أن تنظر في المرآة التي تحملها معها في حقيبتها لتُدرك حالتها. لا بد أن عينيها حمراوان ومنتفختان، وأنفها مستمر في التسييل بشكل محرج. ولتجد لنفسها مخرجًا نظرت إلى الساعة.

قالت بصوت يتهدج من جديد: الوقت متأخر، ولا أريد أن يفوتني القطار.

سألتها ناعومي: هل يجب فعلًا أن تذهبي؟

- أجل.

- إليكِ إذن رسمتي لقوس قزح، أهديها لكِ.

أخذت أنسيلما الورقة، وطوتها بعناية ووضعتها في حقيبتها الصغيرة.

وقالت لها: وداعًا.

وداعًا –أجابتها الطفلة– وتذكري أننا لا بد دائمًا أن نتحلى بالأمل! ففي نهاية الطريق يوجد دائمًا كنز!

سارت تجاه محطة القطار، وبللتها بضع سيارات مرت بجوارها بالمياه. كانت الأعشاب على الحواف قد عبرت عليها الحلزونات وتركت خلفها خطوطها الصغيرة، كأنها انعكاس للخطوط الكبيرة التي ترسلها الشمس. في طفولتها، كانت الحلزونات هوايتها، كانت تحميها في صناديق الأحذية، وتدللها بأوراق كبيرة من الخضرة، كانت مسحورة بتلك العيون التي تبرز على قمة قرون استشعارها، ومن واقع أنها تستطيع أن تتحرك للأمام وللخلف، كأنها بيرسكوبات. عندما كانت تأخذ بعض القواقع إلى الفصل، كان الأطفال يندهشون من طريقتها في تناول الطعام، ومن قدرتها على الانسحاب إلى قوقعتها، وإغلاقها للباب بإحكام.

في إحدى المرات، وعندما كانت تُدرِّس في ميستري، حدث شيء غير مستحب: أحد الصبية الراسبين، ليتباهى، أخذ الحلزونة وسحقها أسفل كعب حذائه. كانت ردود الفعل لدى رفاقه متفاوتة: البعض منهم أخذ يضحك، بعضهم شعر بالاضطراب، مثل الصغير والخجول تونيللو الجالس في الصف الأول. ما زالت تتذكر بكاءه اليائس الشديد. لم يُفِد في أي شيء كوب الماء الذي دفعته ليشربه، أو الحلوى أو إخراجه خارج الصف في الممر ليقف قليلًا في الهواء الطلق. على الرغم من مرور أعوام كثيرة على ذلك، فإنه كثيرًا ما يبدو لأنسيلما أنها تسمع بكاءه، ذلك الصوت الحزين، العميق، والعنيف الذي لا يمكن توقع صدوره عن ذلك الجسد الواهن.

الأطفال فقط يعرفون البكاء بهذه الطريقة، فكرت آنسيلما، وفي تلك اللحظة أدركت أنها هي أيضًا بكت بحرقة لساعات طويلة مثل تونيللو الصغير.

منذ متى كانت الدموع قد اختفت من حياتها؟

لقد بكت عندما اكتشفت كذبات زوجها، ومنذ ذلك الحين، ربما بكت بعدها مرتين أو ثلاث مرات، أمام أحد الأفلام المؤثرة جدًّا.

ثم بعد ذلك، لا شيء.

لم تكُن الأعوام الأربعون الأخيرة من حياتها سوى أعوام خالية من المشاعر وباردة. نزل الثلج حتى وصل لقلبها ومن هناك، بإبر رفيعة، بدأ يغزو عروقها حتى أعضائها: الكبد، والكليتين، والطحال، والرئتين. حتى المخ لا بد أنه قد تغطى بالصقيع كأنه كرة من اللحم تُركت مدة أكثر من اللازم في المجمد.

وكان افتعال المشاعر قد جرَّدها ببطء من حياتها. لأعوام عديدة عاشت كأنها أحد مخلوقات أفلام الرعب: حية في الخارج وميتة في الداخل.

ثم وصلت لويزيتو. كان البغاء هو من تسبب في ذوبان الجليد، إن المياه التي استمرت في الخروج من أنفها وعينيها لم تكُن سوى هذا: الجليد الذي نجحت في إذابته بحبها.

ولكن الآن لويزيتو تحتضر، ربما لا يستغرق الأمر سوى بضع ساعات أو بعض الأيام، ولن تشعر بعد ذلك بعضاتها الرقيقة في أذنيها، ولا بأنفها وهو يندس بين الريشات الخضراء الناصعة لصدرها.

وصلت إلى المحطة نصف ساعة قبل وصول القطار الإقليمي الذي سيقلها إلى بولونيا.

عادت الشمس لتُضفِي بحرارتها على الجو، كانت أطراف أسقف الرصيف فقط رطبة بعض الشيء، بقايا آثار العاصفة التي انتهت للتو. ومن الكافيتريا الصغيرة المطلة على الأرصفة كانت تصل أصوات الموسيقى المنخفضة للعبتين تعملان بالكهرباء. لم يكُن هناك بائع للصحف، وعلى الزجاج المتسخ للتذاكر كانت هناك ورقة مكتوبة بخط اليد تعلن أنه خارج الخدمة، وبجواره كانت هناك آلة جديدة لختم التذاكر تقول داعية: "اختر لغتك" وتُظهر على الشاشة الملونة أعلامًا مختلفة يمكن لمسها.

ختمت بطريقة آلية تذكرة العودة، ولكنها أدركت على الفور عبث هذا التصرف.

ما معنى عودتها إلى المنزل؟ أن تفتح الباب فلا تجد أحدًا؟ أن ترى المجثم موضوعًا هناك والشبك على النافذة، وثمار الفول السوداني موضوعة في إناء مغلق بإحكام لكي لا تنالها الرطوبة؟

كيف سيمكنها أن تعيش في منزل حيث ينتظرها، كصديقتين مخلصتين، المرارة واليأس؟ في النهاية سيتمكنون أيضًا من تعيين واحدة ترعاها، وهكذا سينقضي الوقت بين الحساء جاهز الصنع، والدوران حول المبنى السكني ممسكة بذراع غريبة، في رضا الابنين، اللذين سيشعران بالراحة.

لا، لم تكُن هذه هي الطريقة التي أرادت بها إنهاء أيامها.

إن موت الببغاء سيكون أيضًا موتها. الأمر يتعلق فقط بأن تختار بين الوحدة البطيئة المؤلمة، أو عظمة تصرف صادم.

وخطر ببالها ترجمة نص لاتيني كانت قد قامت بها في امتحانات التوجيهية، وكان يمدح شجاعة الموت الاختياري في ظل توقع إهانة الشرف. كانت قد تناقشت في هذا أيضًا مع لويزيتو. هل من الأفضل أن يظل المرء على قيد الحياة بظلال من الجبن، أو أن يلقي بنفسه تجاه المجهول بكرامة؟ لم يكُن لدى صديقتها أدنى شك: "لا يمكنني أن أعيش ولو للحظة واحدة كالدودة". في ذلك الوقت كانت هي أكثر حرصًا، ولم تكُن الاختيارات الجامحة تنتمي إلى شخصيتها.

ولكن الآن تغيرت الأمور. في أثناء نزولها من السلالم التي تقود إلى الرصيف كانت قد قررت بالفعل أن أفضل شيء هو إنهاء كل شيء، أن تموت هنا، على الفور، بلا تأجيل. في حقيقة الأمر لن يكون أمرًا في غاية الصعوبة، لا تحتاج سوى إلى أن تغلق عينيها وتقفز في اللحظة المناسبة.

نظرت أنسيلما حولها: وفيما عدا راهبة مسنة منهمكة في تلاوة صلاة السبحة على الرصيف الآخر، لم تكُن هناك نفس حية، لا رجال شرطة، ولا عمال سكة حديد، لا يوجد أي شخص قادر على أن يمنع ما ستطلق عليه الصحف فيما بعد "تصرفًا مجنونًا".

هل كان بالفعل تصرفًا مجنونًا؟ نعم، كان هذا، ولكن سيكون من الجنون أكثر أن تضطر إلى أن تعيش مع شخص يرعاها. ثم، ما الشيء المجنون؟ من يمكنه أن يحكم بما يعتمل في صدورنا؟ كانت تعاني من الاكتئاب، لا بد أن الصحف ستكتب هذا، ربما سيُخرجون أيضًا حادث استبعادها من المدرسة. عندئذٍ سيحلو لها أن تهبط من السماء بقلم أحمر لتصحح: إن السيدة سكاتولين لم تكُن في واقع الأمر مكتئبة، بل منذ وقت قريب كانت قد عادت لتحب الحياة بالقوة نفسها التي أحبتها بها في شبابها.

بالفعل، في اللحظة التي عادت حياتها من جديد لتكتسب معنى، تمزق ذلك الشعور. هل كان هناك سبب لكل هذا؟ وإذا كان هناك، فما هو؟ هل أراد شخص ما في أعلى أن يعاقبها؟ أو هل كانت هذه هي العناية الإلهية؟ إذا كانت هي قد ماتت قبل لويزيتو، في الواقع، وهذا شيء محتمل جدًّا أن يحدث، نظرًا إلى طول عمر الببغاوات، ماذا كان سيفعل بها ابناها؟

وتذكرت أن زوجة ابنها في إحدى المرات كانت تفتخر بقدرتها (التي تعلمتها من جدها في الريف) على أن تنزع رقاب الطيور -دجاج، دجاج حبشي، حمام- بضربة جافة وينتهي الأمر. قالت هذا وهي تضع الصبغة على خصلات شعرها.

ماذا كانت خطط السماء؟

منذ فترة طويلة كانت قد توقفت عن فهمها، ربما منذ أن تحول الامتنان الذي كان يصحب كل صباح لها ويمنح معنى لكل تصرف من تصرفاتها إلى إحباط ومرارة. في لحظة ما شعرت أن الحياة خانتها. ولكن من الذي خان بالفعل؟

- انتباه! القطار يقترب، زعق الصوت المسجل من مكبر الصوت، ابتعدوا عن الخط الأصفر، ابتعدوا عن الخط الأصفر.

كان مكبر الصوت يبرز من وراء سقف المحطة.

كانت هناك حمامات غبية تهدل على إفريز السقف، بينما تطير مجموعة صاخبة من عصافير الدوري إلى الأمام وإلى الخلف من حصى الرصف على الأرصفة بشيء ما في مناقيرها. كانت هناك علب سجائر فارغة، هناك في المنتصف، وبعض المعلبات الفارغة، وكرتونة من النبيذ الرخيص، وصفحات مجلة رسوم متحركة، ونبتة طماطم تمد أوراقها بين الفضلات.

حدقت أنسيلما طويلًا في كل تلك التفاصيل لأنها ستكون الصور الأخيرة التي لها من رحلتها على الأرض.

- القطار يتحرك، ابتعدوا عن الخط الأصفر، ابتعدوا عن الخط الأصفر.

عند سماع ذلك التحذير الثاني، أطاعت أنسيلما، وتراجعت أربع أو خمس خطوات، وضعت الحقيبة على الأرض، وخلعت حذاءها ذا الكعبين، وثنت رقبتها قليلًا.

كان القطار على وشك الوصول من جهة اليمين، شعرت بالأرض تهتز. كانت قدماها أيضًا تهتزان، مثل يديها وقلبها وأنفاسها.

قالت لنفسها وهي تستجمع كل قوتها. "تشجعي!" ثم رفعت نظرها لتصافح السماء.

في أثناء اختفاء قوس قزح ترك بصيصًا صغيرًا معلقًا بين السحاب، والآن بدا كأن ذلك البصيص يتحرك نحوها.

هل هذا ممكن؟ تساءلت أنسيلما، وهي تعتدل لتقف على قدميها.

في تلك اللحظة نفسها، عبر أمامها القطار بسرعة رهيبة، وتسبب في تطاير ثوبها وبعثر شعرها.

وباختفاء العربة الأخيرة في نهاية الرصيف، وعودة الصمت، وقفت أنسيلما على أطراف قدميها، وصاحت نحو السماء: *كراك*؟

أجابها البصيص الذي يقترب: *كراك، كراك*!

عندئذٍ ضمت أنسيلما يديها كعلامة شكر ثم فتحت ذراعيها في استقبالها.

ولكن كان الهبوط مفاجئًا.

"*كروك، كروك، كروك*"، همست لويزيتو في أذنها بالحميمية المعتادة.

"*كروك، كروك*"، أجابت أنسيلما، وهي تدفن أنفها في صدر لويزيتو الخالي من الشعر، بينما أخذت دموعها تتساقط من جديد وتبلل وجهها.

Notes

[1←]() نظرية فيثاغورس.

[2←]() مطلع قصيدة "اللا نهائية" لليوباردي.

[3←]() La Cavalcata delle Vachirie – Wagner.

[4←]() Le Quattro Stagioni – Vivaldi.

[5←]() Ohi vita, ohi vita mia! Ohi core ‘e chistu core, si state o’
...primm’ammore, o’primm e l’ulteme, sarai pe’ mme

[6←]() I Notturni-Chopin.

[7←]() Tenimmoce accussì, anema e core. Nun ce lassammo cchiu, manco
pe’n’ora. ‘Stu desiderio ‘e te mme fa paura. Campa’ cu’ te, sempre cu’ te pe’
!’nun muri

[8←]() عقَّار طبي مصنوع من الأعشاب، مهدئ.

1. الغلاف
2. لويزيتو
3. مقدمة المؤلفة
4. 1.
5. 2.
6. 3.
7. 4.
8. 5.
9. 6.
10. 7.
11. 8.
12. 9.
13. 10.
14. Notes